حقول الزنبق والفجل

مجموعة قصصية

د. يوسف سلامة

الطبعة الأولى

2021م- 1442هـ

ديوان العرب

للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية - بورسعيد

عنـــوان الكتاب: حقول الزنبق والفجل

اســـم المـؤلف: د. يوسف سلامة

التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية

رقم الإيـــداع: 2592 / 2021

الترقيـم الدولي: 8 - 78 - 6749 - 977 – 978

تـصميـم الغلاف: م. نعمة أنور كريم

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: محمد وجيـــه

رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

حقول الزنبق والفجل

مجموعة قصصية

د. يوسف سلامة

2021

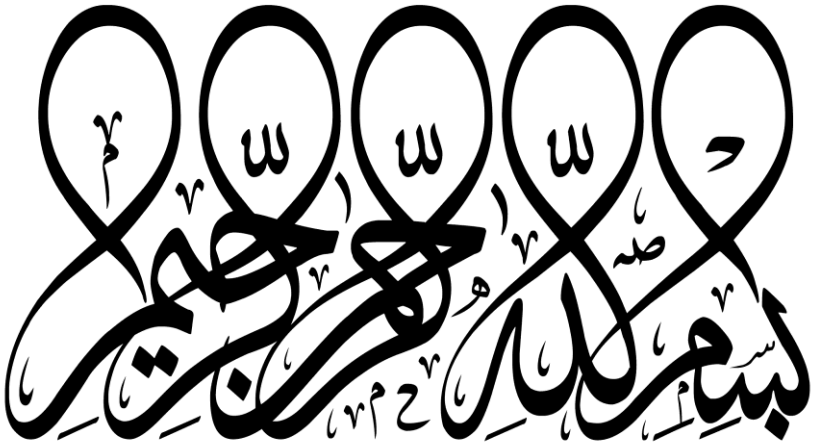
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى وطني الصغير بأبعاده الأربعة....

فريال

سام

رام

شام

د. يوسف سلامة

****

وثائقي من الصومال

أصدرت جولي إشارتها للمصور "خذ صورة أقرب، ركّز على وجه الطفلة". جفت دموع البنت النحيلة واختفى بريق عينيها.. أخذت تحفر بأظافرها المكسرة في التراب، الكاميرا تنتقل بهدوء بين وجه الطفلة وأصابعها التي تحفر التراب، ثم تلاحق نظرات البنت عندما توزعها بشكل عابر بين وجه أخيها والحفرة الصغيرة، يبدو الطفل نحيلا جداً، عمره اليوم خمس سنوات وشهران، لكن شكله لا يوحي بأنه قد تجاوز العامين، فتك به الجوع والعطش، وها هو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فريق التصوير البريطاني وصل في الوقت المناسب، الطفل كان يبكي عند وصولهم، وأخته الأكبر سنا كانت تحتضنه بحب، توسلتهم بنظراتها، بحركات لسانها الجاف.. جولي رئيسة الفريق ومخرجة الأفلام الوثائقية العالمية، وجدتها فرصة ذهبية قد لا تتكرر لحصد جائزة ذهبية جديدة تضيفها لسجلها الحافل بالتكريمات والتتويجات.. سيدة الأفلام الوثائقية، وقف زميلاها؛ المصور توني والمنسق العام لنشاطهم الصحفي والإنساني ماكسيم، وقفا يتأملان بذهول ذكاء جولي وحدسها الأنثوي الخارق للطبيعة، فقد طلبا منها أن يبقوا فترة بعد الظهيرة -بعيد وصولهم للصومال-في المركز الإعلامي للأمم المتحدة،

ليرتاحوا من عناء السفر، لكن حدس جولي كان يقودها للمجد كالعادة وما كان لهما الخيار، تبعاها ووصلوا في الوقت المناسب تماما!

أووه يا إلهي! لقد وصلنا قبل أن يلفظ الطفل الصغير أنفاسه الأخيرة، قال توني بسعادة وهو يشد شعره ثم أضاف بتأثر: توقيت مذهل!

-انصبْ كاميرتك بالزاوية المناسبة.. هناك.. قالت جولي، ثم أردفت: بسرعة.. بسرعة قبل أن يفارق الطفل الحياة!

بدا التأثر الشديد على وجه ماكسيم وأخَذَه مشهد الطفلة وأخيها المحتضر، كان الطفل يصدر صراخا مخنوقا أشبه بثغاء جدي صغير حديث الولادة، لكن الطفل كان يعدّ العدّة لمفارقة الحياة.. دمعتان تحدرتا على وجه ماكسيم، الموقف غاية في التأثير، طفل يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام عدسة الكاميرا، وماكسيم نفسه يساهم بتسجيل هذه اللحظات، سيشكل الفيلم سبقا صحفيا، وسيحصل على ملايين المتابعين على اليوتيوب ومواقع التواصل الاجتماعي، بكى ماكسيم متأثرا بأضواء المجد وضوضاء الشهرة القادمة قريبا!!

انتفض الصغير بجسمه الأسمر النحيل..

انتفاضة أخرى، وذوت شعلة الحياة، وتلاشت آخر همساته في أذن أخته..

وضعت البنت رأسها على صدر أخيها لتتأكد من أن القلب الصغير قد توقف نهائيا عن الخفقان، حركات أتقنتها رغم عمرها الصغير، فالموت الساكن في مسام جلودهم الرقيقة علّمهم دروسه قبل الأوان، كررت

الطفلة حركات تعرفها لتتأكد من موت أخيها.. ثم.. قبلته على وجنته اليسرى..

وضعته في الحفرة..

تراءى لها أن الحفرة صغيرة قليلا..

رفعت الجسد الصغير بعيدا عن الحفرة، وعادت لتحفر من جديد..

جولي تقفز حولها مثل قردة شقراء رشيقة: من هنا.. من هذه الزاوية سيكون المنظر أجمل..

-يا للبؤس! حتى تعابير وجوههم غاية في الكآبة والفقر. علّق توني..

-إن هذه الملامح الشقية هي التي تصنع حياتنا المرفهة، أضاف ماكسيم ضاحكا!

قابلتهما جولي بابتسامة مقتضبة، ثم انحنت بحدّة وتابعت إلقاء تعليماتها: ركّز على الحفرة من خلال ذراعي البنت، وأنت ماكسيم استعمل كاميرتك من الجهة الأخرى، أريد ملامح سهلة القراءة.. دموع العينين.. جفاف الشفتين.. مع رجفان حركات اليدين.

حاولت الطفلة رفع الجسد الصغير لتضعه في الحفرة فلم تقدر، لقد أنهكها الحزن وعملية الحفر وقبلهما الجوع والعطش، نظرت حولها في الوجوه الملوّنة، تأملتها للحظات تستجدي حفنة من الإنسانية، لكن جولي صاحبة التجارب الطويلة لم تعد تنطلي عليها تلك النظرات: "نحن هنا لنعمل، لا لتوزيع المشاعر والانخراط في مشاكل الآخرين، لا شيء سيثير

مشاعرنا إلا فرصتنا لاقتناص اللحظة المناسبة بعدساتنا، مع صياغة (نص تعليق) مناسب للصورة، ويجب أن يكون "نصّنا" أكثر إبهارا من نظرات هؤلاء الأطفال ومعاناتهم" .. "هذه قواعد عملنا وهذا سرّ إبداعنا وشهرتنا"!!

الطفلة تهيل التراب على جسد أخيها العاري الصغير، جولي تقفز من زاوية لأخرى، وهي تعاين اللقطات الأجمل وتوزع تعليماتها، جفّ حلقها وحلقا مساعديها من جفاف الطقس والأكثر من شدة التأثر!!

"إنها بعض الآثار الجانبية لإفراز الأدرينالين"، قالت جولي عبارتها وتناولت زجاجة الماء وشربت، خرج مساعداها من ذهولهما بروعة المجد المنتظر، وتذكرا أن يشربا.. شربوا ثلاثتهم، ودلق ماكسيم الكثير من الماء على رأسه الأصهب ولحيته الشعثاء، لفت صوت الماء نظر الطفلة الصغيرة، رفعت رأسها نحوهم بصعوبة، ونظرة استجداء تائهة تصرخ من عينيها الذابلتين..

صاحت جولي: قريب جداً.. قريب جداً للعينين.. سننهي فيلمنا هنا.

توقفت الكاميرات عن العمل..

توقف قلب الطفلة عن الخفقان أيضا..

ارتمت فوق جثة أخيها نصف المطمورة بالتراب..

صاحت جولي بمرح: الأوسكار ينتظرنا!

أردف ماكسيم: علينا أن نعد تعليقا جيدا.. وأن نرتب المشاهد بطريقة مثيرة..

جولي: تذكرت.. أعد تشغيل كاميرتك توني، أنظر، أريد لقطة واسعة، تظهر جثة البنت في صحراء واسعة، لتعرف البشرية جمعاء حجم الخطر الذي يتهدد هؤلاء البشر.

نفّذ توني التعليمات بدقّة وتركيز شديدين، استعان بعصا طويلة ليأخذ لقطات من السماء، ليظهر حجم البنت الصغيرة التائهة في خضم هذه الصحراء الواسعة والخالية من أي نفس إنساني.

-انتهيت.. قال توني بلهجة المنتصرين.

قفزت جولي وعانقته، انضم إليهما ماكسيم، ضمّهما بحب، وذرفت عيناه ثانية!

-ماكسيم كم أنت رقيق المشاعر!

-هذا لا يعفيك سيدتي.. أريد حفلة صاخبة، احتفالا بإنجاز اليوم، ردّ ماكسيم.

-نعم يجب أن نحتفل فليس من السهل أن نوفّق بفيلم كهذا دائما، أردف توني.

-أسرعا قبل أن تغيب الشمس، فقد تأتي بعض الوحوش بسبب رائحة الجثث الطرية.. قالت جولي بحزم.

-إذاً علينا أن نسرع فلا شكّ أن الوحوش ستفضل اللحم الأبيض الحي على اللحم الأسمر الميت، علق توني.

ضحكت جولي طويلا: وهل تعتقد أن الوحوش تأتي هنا لتمارس الحب؟!

قال توني: ما دام البشر يمارسون التوحّش، فمن غير المستبعد أن تمارس الوحوش الحب!

-فكرة خلاقة، ماذا تريد أن تقول؟ قد نستفيد من ملاحظتك في (السكريبت) النص المرافق للفيلم! سألت جولي.

-أتساءل أي وحشية هذه التي يتمتع بها والدا الطفلين ليتركاهما ويرحلا.

ضحك ماكسيم: لا شك أنهما متوحشان جداً ليموتا عطشا وجوعا تاركين أطفالهما دون رعاية!!

-لا فائدة ترجى منكما.. هكذا أنتم معشر الذكور.. تتبادلون النكات في أحرج الأوقات!

-أنت تفكرين بالفيلم، أما نحن فقد تعبنا من عمل اليوم، ها قد وضعنا جائزة عالمية جديدة بين يديك، فدعينا الآن نمرح ونحتفل بإنجازنا العظيم.

جرى الثلاثة يتسابقون حاملين معهم حلما كبيرا قاب قوسين من التحقق، جائزة عالمية لفيلم وثائقي من الصومال.

****

عندما تركنا المدرسة

أتذكر أن قرارنا بترك المدرسة كان غريبا، نحن نكره المدرسة والمدرسين بشكل شديد، حاولنا بكل السبل أن نحسِّن من مستوانا الدراسي فلم ننجح، الدراسة صعبة ومعقّدة جداً، بعض زملائنا مجرد حمير قراءة، يتحملون الجلوس على الكتاب والمذاكرة لساعاتٍ طويلةٍ، صدقاً هم أصبر من البغال على حمل أوزارها، ولديهم ذاكرة عجيبة، يحفظون عدّة أبيات من الشعر دون خطأ أو تلكؤ في كلمة واحدة! رجب وأنا تناقشنا مطولاً في وضع رفاقنا هؤلاء، وحاولنا مراتٍ كثيرةً أن نكون مثلهم، لكننا وجدنا أن ذلك هو المستحيل بعينه، فنحن مثل العصافير التي تكره الأقفاص، مثل خيول برية تأبى السكون أو الركون، نشعر أن مقاعد الدراسة مصنوعة من أشواك جافة قاسية تنخر في مؤخراتنا، حاولنا أن نستعيض عن التفوّق الدراسي بتفوقنا في الشقاوة والتهريج، ولقينا قبولا وتجاوبا رائعا من زملاء الصف، لكن مدير المدرسة الجديد أستاذ معقد جاد وشديد، لا يقدّر المواهب الكوميدية، تسبب لنا بمشاكل كثيرة في المدرسة وفي البيت، حتى أصبحت المدرسة بالنسبة لي ولرجب مأساةً يوميةً متجددةً. جلست أنا ورجب، تناقشنا مطولا في الأمر، ما نزال مدخنين مبتدئين، نسحب النفس من السيجارة، ننفخ صدورنا به، ثم تنفجر صدورنا بالسعال وتدمع عيوننا

قليلا، لكننا نستمر في مغالبة الدخان اللعين، ونستمر في نقاشنا مثل رجال ناضجين في الخامسة عشرة من أعمارهم.. بعد عدة جلسات من الدخان والسعال وصلنا للقرار الأهم في حياتنا، سنحترف مهنة التدخين كخيار استراتيجي!! التدخين يشعرنا بأننا كبار وبأننا رجال حقيقيون، وأضفتُ على القرار الارتجالي: سنترك المدرسة أيضا، الكبار لا يذهبون إلى المدرسة!

اتفقنا أن نواجه أباءنا بالحقيقة.. ذهبتُ إلى أبي وتخيّرتُ وقتا مناسبا لمخاطبته، قدمت له كل الأسباب والأعذار والمقدمات والنتائج، استشهدت ببعض الأمثال الشعبية، وتحدثت كما يليق برجل صغير، وما إن أدرك أبي غايتي من حديثي، حتى علا صوته بالشتائم لي ولأمي، وبدأ بصفعي وركلي وآخر ما سمعته منه: إذا فكرتَ مرة أخرى -مجرد تفكير-بترك المدرسة، سأعدمك حياتك أيها الولد الفاشل العاق!

حملت آهاتي والكدمات في وجهي والدموع تغسل بعض الدماء عن شفتي العليا، وخرجت من البيت ألملم خيبة جديدة فوق خيبتي في المدرسة، التقيت برجب حيث توقعت لقاءه، فاجتماعاتنا لها مكان شبه ثابت في الحارة "الطرفانية"؛ بيت مهجور لا أبواب ولا نوافذ، ولا سقف، فقط بضعة جدران تأكلها عوامل الحت تدريجيا، تعودنا أن نجتمع هنا وندخن خفية عن العالمين، نور مصباح الشارع القريب يصلنا خافتا مما يضفي مزيدا من الرومانسية على جلساتنا، ودْتُ لو أُخبرُ رجباً بما جرى بيني وبين والدي، علّي أنفّس بعضا من حنقي وأساي، لكنني عندما رأيت آثار الكدمات في

وجهه، عرفت ما جرى معه دون أن يخبرني بشيء، كما أنني أدركت ببديهتي السريعة أنّ لا حاجة لي لأخبره ولا فائدة، وأدركتُ أنه عرف قصتي مما طفا منها على وجهي، كان المخاط المدمى قد غطّى شفتي رجب العليا والسفلى، مسحه بقفا يده مرات عدة ونحن نتابع تدخيننا بصمت، ثم وفي حركة مفاجئة لكلينا، التقت نظراتنا، لن نستطيع التخلص من المدرسة والدراسة إلا بقرار جريء:

-رجب! لن نرجع لبيوتنا، ولن نذهب بعد اليوم للمدرسة.

-وأين سنذهب؟ وكيف سنعيش؟ أنا خائف..

-سننقطع عن المدرسة لمدة أسبوعين متواصلين وعندها سيتم فصلنا نهائيا من المدرسة.

-وكيف سننقطع، والدي سيقطع رأسي لو عرف أنني غبت يوما واحدا.

-أيها الغبي، سنغيب عن آبائنا وعن بيوتنا وعن المدرسة، سنختفي عن الجميع لمدة أسبوعين، ألم تفهم ما قلته منذ البداية؟

-لا أريد، أنا خائف.

-ومما تخاف، سنأكل (قتلة) من آبائنا؟! ما الجديد؟ كل يوم نأكل (قتلة) في المدرسة و(قتلة) في البيت، هذه المرة ستكون (قتلة) واحدة، (قتلة) واحدة كبيرة، ستكون أشد قليلا لكنها ستكون الأخيرة.

-أنا خائف، ومتردد، أنا أرغب بترك المدرسة. لكن ماذا سنفعل إذا نجحنا بترك المدرسة، أقصد ماذا سنفعل؟ كيف وأين سنقضي أيامنا؟

-إذا نجحنا بترك المدرسة فسيكون هذا أول نجاح نحققه في حياتنا، وبعده كل شيء سيكون ناجحا، ثق بي واعتمد علي!

وضعت الخطة، ووافقني رجب مترددا.

عدنا في تلك الليلة لبيوتنا، سرق كلّ منّا ما وجده في جيوب أبيه من المال، بضعة وريقات من فئات نقدية وضيعة، لا تغني ولا تسمن من جوع، تعشينا عشاء ثقيلا، ملأ كل واحد منا بطنه حتى كدنا ننفجر من كثرة الطعام، وغادرنا منازلنا بعد منتصف الليل.. اعتقدنا أن وجبتنا الأخيرة ستكفينا أياما، لكن الجوع كاد يفتك بنا قبيل الظهيرة من اليوم الأول لفرارنا، واحترنا ماذا نفعل، بكى رجب فزجرته.. قصدنا بيت عمتي في الطرف الآخر للقرية، تناولنا فطورنا عندها، استغلينا وجودها وحدها في البيت، فأنا أعلم أن زوج عمتي وأولاد عمتي جميعا في دوامهم في مثل هذه الساعة من النهار، وعندما سألتنا عمتي عن سبب وجودنا خارج المدرسة، قلت لها سبب هروبنا وخطتنا..

زودتنا ببعض الطعام، بعد أن رفضنا (زوّادتها) من النصائح، وفشلت بإقناعنا بالعدول عن هروبنا.

قضينا النهار نمشي وعندما تعبنا جلسنا قرب جدول صغير، تناولنا ما أعطتنا إياه عمتي من طعام، قالت لنا إن الطعام سيكفينا يومين أو ثلاثة ريثما ترجع عقولنا لرؤوسنا، لكن الطعام نفذ من اليوم الأول، في المساء دخّن كل واحد منا سيكارة ليسكت جوع بطنه، وفجأة حلّ الظلام وأصبح

كلّ شيء أسود، وكنا نرى على بعد ميلين أضواء القرية، شعرنا ببعض البرودة، ثم بدأت أشعر بقطعان الذئاب والثعالب تسير بقربي، أعدادها كبيرة ومنظرها مخيف، أردت أن أسأل رجب إن كان يرى ما أرى، لكنني خفت أن تشتمّ الحيوانات رائحة صوتي، كنا -أنا ورجب-متلاحمين، لكني لم أستطع إيصال صوتي لأذنه، حقيقةً نصف أذنه كان في فمي من شدة الالتحام، لكن صوتي كان قد اختفى في أعماق بطني.. بعد وقت من الجمود التام، همس رجب: هيا بنا نصعد الشجرة، في المدرسة قالوا لنا أن الإنسان البدائي كان يعيش في الكهوف وفوق الأشجار ليتّقيَ الحيوانات الضارية!

فوق الشجرة.. سألته أين رأى الحيوانات الضارية، قال لي: عندما كنا في الأسفل كانت الأسود والنمور تتمسح بي وهي تعبر طريقها إلى هناك.. ثم أشار لي نحو جهة معينة، لا أعرف أهي في الشرق أم في الغرب: انظر إنهم جالسون هناك يتربصون بنا، نظرت حيث أشار وقلت له: إنها مجرد قطعان من الذئاب والثعالب، فقال: أيها الغبي انظر لعيونها الكبيرة اللامعة، هذه عيون حيوانات ضارية وليست عيون قطط وثعالب، دقّقت النظر مرة أخرى، إنها تلمع في الظلام بشكل واضح، خفت أكثر وتمسكت بالغصن، وقلت له: علينا أن نبقى يقظين، قال: نعم، ثم أضاف: إذا بقينا صامتين فقد ننعس، قلت له: وإذا تكلمنا لفتنا أسماعهم نحونا، فيأتون ويفترسوننا!!

صمتنا للحظات، شعرت بأني غفوت خلالها هنيهةً، فتحت عيني ونظرت.. الشمس بدأت بالبزوغ، رجب نائم ورجلاه متدليتان للأسفل، خفت عليه من الوحوش المتربصة بنا فصحت به: رجب!

وقبل أن يعود نفسي لصدري كان رجب قد أصبح تحت الشجرة وهو يئن ويصيح من ألم السقوط المباغت، ثم لم يلبث أن تحول أنينه لشتائم لي ولأسرتي، فقلت له: اخفض صوتك قبل أن تأتي الوحوش لافتراسك.. ولم أُنهِ عبارتي، حتى وثب رجب وصار بجانبي على الشجرة وسألني بخوف: أين هم، هل ما زالوا يقظين؟

قلت له: ألا تستغرب معي وجود الحيوانات المفترسة هنا، فقد قال لنا مدرس العلوم أن غاباتنا القريبة لا يوجد فيها إلا الغريري وابن عرس!

أثناء حوارنا العلمي جالت عيوننا الخائفة بحثا عن الوحوش التي نامت قربنا، لكننا لم نعثر على شيء، سوى ساقية قريبة يترقرق ماؤها، قال رجب: كان ذلك انعكاس أضواء القرى المرتفعة على ماء الساقية، قلت له: لكنني خفت كثيرا، قال: وأنا.. نمت بعمق شديد!

أصوات العصافير وزقزقاتها ملأت أسماعنا طربا ونشوة، ولم ينغص علينا هذه السيمفونية الرائعة من أصوات الطيور وخرير المياه في النهر المجاور، سوى أصوات أمعائنا الثائرة من شدة الجوع.. قال رجب: كان مدرس العلوم على حق، عندما قال إن غاباتنا لا تحوي وحوشا ضارية.

-رجعت تكرر عباراته، تعرف كم أكرهه وأكره كتاب العلوم.

-تذكرته لأنه هو الذي قال لنا أن البروتينات ضرورية لنمو الجسم، كم أنا جائع للبروتينات!

-علينا باللحم والبيض فهما غنيان بالبروتين.

-ونحتاج أيضا لبعض السكريات، السكريات تمنحنا الطاقة، هل تتذكر حين طردنا أستاذ العلوم من الدرس بسببك، عندما ضحكتَ على كلمة الطاقة، وقلتَ همسا (طاقة تعني فتحة، السكريات تمنحنا فتحات!)، فضحك الطلاب جميعهم وطردنا الأستاذ أنا وأنت.

-نعم أتذكر، وأتذكر أنه قال إن الخضراوات الخضراء غنية بالحديد، ورق الشجر أخضر، ربما نجد فيه بعض الحديد.

وأكلنا الحديد، كان طعم ورق الشجر مرّا.. لا بد أن حديده صدئ، اليوم آمنت بمادة العلوم، فقد شعرت بطعم الحديد الصدئ في يخضور الشجر، أكلنا بعض الحشائش، وافترضنا أن الحشائش عمرها قصير ولم يصدأ حديدها بعد، لذا كان طعم بعضها لذيذا، ثم تمكنا بمهاراتنا الخاصة من صيد بعض البروتينات.. ثلاثة عصافير، أوقدنا نارا خفيفة وشويناها على عجل.

-مدرس العلوم لم يذكر شيئا عن فوائد التدخين.

-من عيوب المدرسين أنهم لا يعرفون فوائد المواد الضارة كالتدخين، أما نحن فنعرف.. توقف رجب قليلا ثم أضاف: أنا لا أعرف أي فائدة للتدخين، فهل اكتشفت أنت شيئا لا أعرفه؟

-نعم، لولا أننا مدخنون من أين كان لنا بالكبريت لنشعل به النار؟

-لله درّك، أنت أذكى من أستاذ العلوم!

-هل تعرف أن هذه الغابات كانت كثيفة جداً وكانت مليئة بالوحوش الضاريات، وقبل مئة عام عندما اعتمد العثمانيون على القطار، قطعوا الغابات لاستعمالها وقودا للقطار البخاري، فنفقت الحيوانات واختفت معظم الغابات بالقطع الجائر.

-نعم أعرف هذا، فمدرس التاريخ كان يكرر هذا الكلام كثيرا.

-اشتقت للمدرسة.

-وأنا كذلك.

-لكننا لن نرجع..

-نعم، نحن لن نرجع، نحن مشتاقون فقط!

ثم قلنا معا بإيقاع منسجم: نحن نكره المدرسة والمدرسين!

عند الظهيرة رأينا قطيعا من الأغنام يسوقه راع متوسط العمر، اختبأنا بين الأعشاب الطويلة ريثما تجاوزَنا الراعي، راقبناه بحذر، أخرج مطرته، شرب منها، مسح وجهه بالماء، أخذ نظرة عامة للقطيع، ثم انسدح تحت شجرة وارفة الظلال، غطى وجهه وعينيه بشماغه، وغفا، حتى إننا سمعنا شخيره!

-حان الوقت لنحصل على المعادن الضرورية للجسم، سنشرب الحليب.

-من أين؟

-من ضرع الغنمة مباشرة إنه حليب طازج.

-لا شيء أفضل من الحليب الطازج للصحة.

صحنا معا: مدرس الرياضة، ثم تلفتنا بحذر نحو الراعي، الحمد لله ما يزال يشخر.

تسللنا بين الغنمات بحثنا عن أكبرهن أثداء.. ورضعنا حتى الثمالة.

-الحليب غير المغلي قد يسبب الحمى المالطية.

-مدرس العلوم مرة أخرى؟ ما هي الحمى المالطية، أنا كنت نائم في هذا الدرس.

-أنا لم أكن نائما لكنني كنت ألعب لعبة الخمسات مع عادل.

-اللعين عادل، لماذا لم يهرب معنا، إنه أجحش منا في المدرسة.

-عادل يحب الهروب كثيراً، لو أننا أخبرناه بالخطة لهرب معنا.

-وكيف نخبره، لقد كانت الخطة سرية، وإذا أبلغناه سيكتشف العدو سرنا، وتفشل مساعينا، "السرية.. سر نجاح أي خطة".

صحنا معا: مدرب الفتوة!

ثم أعطيت أمري: هجوم.

تناولنا الحجارة وأخذنا نرمي بها الغنمات، هاج القطيع، تفرقت الغنمات، وعلا الثغاء من كل صوب، ضحكنا بسعادة ونحن نرى هجومنا يحقق أهدافه في ترويع الأعداء وتشتيت جمعهم، صحا الراعي مذهولا، وأخذ يمطرنا بالحجارة، هربنا مبتعدين عنه ونحن نضحك أيضا، قال رجب: هل

رأيت لقد خسرنا المعركة لأننا لم نضرب الراعي أولا، أفضل خطة للهجوم هي ضرب مراكز القيادة والتحكم عند العدو.

-كلام كبير، هل قاله مدرب الفتوة أيضا؟

-لا أدري، ولكني متأكد أني سمعته من أحد المدرسين.

-المدرسون يعرفون أشياء كثيرة.

-لكننا نكرههم ونكره المدرسة!!

وضحكنا طويلا.. ما أسهل الضحك والإنسان ممتلئ البطن! الجوع آفة حقيرة لا تنتظر وقتا أو موعدا لتذكرك بنفسها، فجأة تقطع عليك لحظات المتعة لتعلن وجودها بكل فظاظة.. سألت رجبا: هل كان أهالينا يؤمنون لنا كل تلك الكميات من الطعام؟ فأنا جائع من جديد!

-لا بد أنهم كانوا يفعلون، فأنا لم أشعر بمثل هذا الجوع أبدا في بيتنا.

-ولا أنا!

-آباؤنا يضربوننا، لكنهم يطعموننا أيضا.

-وأمهاتنا يعملن لنا الشاي، والسندويشات اللذيذات.

تذكرنا أهالينا وبيوتنا، فبكينا.. خيم الليل علينا، وعمّ الظلام، فغفونا ونحن نبكي!

في اليوم الثالث، استيقظنا على أصوات تنادي بأسمائنا قادمة من بعيد، ميزنا فيها بعض أصوات أهالينا فأسلمنا سيقاننا للريح.

لا بد أنهم يبحثون عنّا ليقبضوا علينا ويعيدوننا قهرا وجبرا للمدرسة، ناهيك عن العقاب الذي ينتظرنا.

ابتعدنا كثيراً، حتى اختفت القرية تماما عن ناظرينا، نحن بعيدان وفي مأمن من الأعداء، لكن عدونا الألعن كان معنا يرافقنا في كل خطوة ويسبقنا لكل مكان، لم نعد نقدر على الهروب منه فقد كبلنا بقيوده المؤلمة: الجوع!!!

-نحن نعيش الآن في البريّة، وعلينا تدبر أمرنا كما كان حال الإنسان البدائي، قال رجب.

-ولماذا لا نذهب لإحدى القرى القريبة ونشتري الخبز وبعض المعلبات الغذائية؟

-أنت غبي، هل نسيت قصة أهل الكهف، عندما أرسلوا أحدهم ليحضر لهم الطعام، فاستدل عليهم القوم من عملتهم.

-قصة مؤثرة، كان الأستاذ سلمان يلقيها بتأثر والدموع في عينيه.

-كنت أحب دروس التربية الإسلامية، فيها قصص مؤثرة..

-وأنا أيضاً..

ثم قلنا معا بإيقاع منسجم: لكننا نكره المدرسة!

تابعت أنا: ولأننا نكره المدرسة علينا أن نفكر بخطة للغزو، كم كنت أتمنى لو كنت أميرا للصعاليك مثل عروة بن الورد.

-الأسبوع الماضي تحدث عنه أستاذ اللغة العربية، يبدو أنه يحبه جداً.

-وأنا أحبه، لكن أليست كلمة صعلوك شتيمة؟!

-كل ما أعرفه الآن أنني جائع جداً، وعادة لا أستطيع التفكير وأنا جائع.

-كان راعي الغنم قريبا منا، لماذا تركنا الغابة القريبة من قريتنا.

-كان أهلونا سيجدوننا بسهولة، فالغابة على مرمى أصواتهم.

-سنبحث في هذه الكروم والبساتين عن شيء يؤكل لا بدّ أنهم يزرعون شيئا ليأكلوه، فالفلاحون يعتمدون على الزراعة في حياتهم.

-وينتجون موادهم الأولية بأنفسهم.

صحنا معا: أستاذ الجغرافيا.. ضحكنا ودخلنا بساتين القرية، وجدنا حقلا واسعا للفول، فأكلنا حتى شبعنا، وأكلنا معه البصل الأخضر وبعض الجانرك..

شبعنا وفرحنا، وأخذنا نتدحرج على شتلات الفول، ونحن نمرح ونضحك..

فجأة سمعنا صوت فتاة تولول وتصيح، يبدو أنها خافت منا، شاطرناها الخوف وأخذنا نجري.. كانت الفتاة جميلة، جاءت لتقطف بعض الفول والبصل فتفاجأت بنا، كما تفاجأنا بها، كان الجو ربيعيا جميلا.. وصلنا حقلا كبيرا مليئا بسنابل القمح الخضراء الصغيرة، تموج مع الهواء، في منظر رائع، تظلل نصف الحقل شجرة دلب عتيقة، جلسنا تحتها وقلت منشدا:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا.. والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله.. كأنما رق لي فاعتل إشفاقا.

-هيهي.. تقول الشعر.. إنه لابن زيدون، قاله في حبيبته ولادة.

-هل تذكر لقد رسبنا في مادة اللغة العربية، لأننا لم نعرف من قائل هذه الأبيات وما هي المناسبة؟

-الأستاذ ناصر، أستاذ اللغة العربية، شديد وسفيه أيضا.

-أرأيت لو كنا اهتممنا باللغة الإنكليزية لهاجرنا إلى الأندلس، كنا سنعيش في غرناطة..

-أليست الأندلس أرضا عربية، لماذا نحتاج للغة الإنكليزية هناك؟

-إنهم يتكلمون اللغة العربية الفصحى، مثل تلك التي يتكلمها الأستاذ ناصر.

-اللغة الإنكليزية أسهل، لا يوجد فيها رفع ونصب وجر وجزم، ولا يوجد فيها جر بالإضافة.

-هل تعرف ماذا يعني جر بالإضافة؟.. أنا لا أعرف.

-أنا أعرف وسأشرح لك.. هل رأيت تلك الفتاة، التي رأتنا نتدحرج في حقل الفول؟

-يا إلهي ما أجملها، عندما أكبر سآتي لأخطبها وأتزوجها..

-لن تقبل بك، إنها جميلة جداً، لن تقبل بأقل من أستاذ مدرسة..

صحنا معا: لكننا نكره المدرسة ونكره الأساتذة!

-بصراحة أنا كنت أحبّ مدرّسة الرسم، ساقاها نحيفتان وصدرها صغير لكنها تروقني..

-وكيف عرفت أن صدر الآنسة هند صغير؟

-يا لذكائك!.. إذا كان صدر المرأة متبارزا فهذا يعني أنه كبير، وإذا لم يكن صدرها متبارزا فهذا يعني أنه صغير، مثل الآنسة هند وهذه الفتاة التي رأيناها في الحقل.

-ليس بالضرورة، أنت ساذج ولا تعرف شيئا عن البنات.. سمعت أختي تحدث صديقتها نهلة، كانت تقول لها إن أختك لمى تحشو صدرها بالورق ليبدو متبارزا وكبيرا..

صاح رجب غاضبا: لا تتكلم عن أختي هكذا أيها الوقح!

-أنا قصدت أن أوضح لك أن البنات كائنات مخادعة.

قام رجب ولكمني بقوة.. فصفعته، وتكررت حركات الصفع واللكم المتبادل.. ثم انتقلنا لمرحلة الركل.. ثم اشتبكنا والتحمنا نتضارب فوق الحزام وتحته؟ وتدحرجنا معا، مرة هو فوقي يضربني ومرة أعلوه فأضربه، وبقينا هكذا حتى أنهكنا تماما، فنهضنا نجر ذيول الخيبة والإرهاق.

جلسنا نتأمل ثيابنا التي أصبحت مشبعة بالطين بعد أن قضينا جولتنا الأخيرة في جدول الماء، ومرت فتاتان بقربنا، اختلستا النظر إلينا مرات عدة وتضاحكتا معا.. نظرت لرجب فرأيته يبكي، قمت إليه واعتذرت منه، وعندما قبلت رأسه كما يفعل الكبار امتلأ فمي طينا!

حاول كل منا أن ينفض بعض القاذورات عن ثيابه، دون جدوى، كان شكلنا مزريا جداً.. وفجأة تذكرت وصحت: اليوم هو يوم الخميس!!

-يا لعبقريتك.. وغدا يوم الجمعة!

-أقصد أن أهلي مدعوون الليلة لخطبة بنت خالتي نجاح.

-وأهلي مدعوون أيضا.. هل تقصد أن نذهب ونحضر حفل الخطبة؟ سنأكل كثيرا.. لكن كيف نذهب بهذه الثياب؟!

-لو بقي فيّ بعض العزم لركلتك على أنفك الكبير، هل نسيت أننا فارّان من وجه الدراسة، أيها الغبي؟ أنا أقصد أن بيتنا وبيتكم سيكونان خاليان، لماذا لا نذهب، ونبدل ثيابنا ونتعشى؟

تمشينا حتى مدخل القرية وانتظرنا حلول الظلام، وبعد حلول وقت العشاء دخلنا بيتنا، كان البيت يغرق في الفوضى، يبدو أن أهلي وأخوتي غادروا البيت وقد رمى كل منهم ثيابه في جهة، الطعام ما يزال في أطباقه في المطبخ.. بدلت ثيابي وتعشينا.. ثم ذهبنا لبيت رجب، وكان حاله كحال بيتنا، بدل رجب ثيابه وتعشينا مرة ثانية، فليس من اللائق أن يتعشى رجب معي في بيتنا ولا أتعشى أنا معه في بيتهم!

أخذنا زوادتنا من الطعام، وصعدنا سطح بيت رجب ونمنا هناك، يبدو أن أهله عادوا متأخرين من السهرة، وناموا دون أن يكون لديهم وقت أو فرصة لتفقد شيء، صحوت أنا ورجب قبيل شروق الشمس وغادرنا حدود القرية قبل أن يصحو سكانها. قال رجب: انظر ما أجمل شروق الشمس، نادرا ما رأيت هذا المنظر.

-وأنا نادرا ما رأيت منظرا بهذا الجمال، يجب أن نستيقظ باكرا لندرك جمال الحياة.

-أنا هربت من المدرسة لأنني أكره الاستيقاظ المبكر!

-ربما كنا على خطأ.

-هل تقصد أننا يجب أن نرجع للمدرسة؟

-لا.. قصدت كنا على خطأ في عدم استيقاظنا المبكر فقط!

"فنحن نكره المدرسة".. قلنا معا بصوت منسجم، وضحكنا ضحكة قصيرة، ثم ركضنا نحو هدف حددناه منذ ليلة أمس، عدنا إلى ظل الدلبة الكبيرة، وكنا قد أحضرنا معنا ضمن الزوادة، دفتري رسم، وقلم رصاص واحد، لم نجد سواه في البيتين، كانت الفوضى عارمة ولم نحب أن نضيع وقتنا بالبحث عن قلم آخر! أحببنا أن نرسم هذا المنظر الطبيعي الرائع.

-لماذا كنا نقضي درس الرسم ونحن نرتب المقالب بالآنسة هند؟ ثم نأتي إلى هنا لنرسم الطبيعة؟

-الآنسة هند غبية، هل تتذكر كم كنا نشاغب في درسها ولم تكن تعاقبنا؟ كانت تطلب منا بكل لطف أن نهدأ وأن نلتزم بآداب المدرسة.

-ليست غبية، بل طيبة ومحترمة، لم تضربنا أبدا.

-معك حق، ولم تشتمنا أبدا، لن أتكلم عنها بسوء بعد اليوم.. لكننا نكره المدرسة وكل المدرسين. قلت الجملة الأخيرة لوحدي، ثم رميت الدفتر في حضن رجب: خذ وارسم أنت.. أنا أكره أي شيء له علاقة بالمدرسة.

لم نرسم شيئا، اليوم جمعة وحركة الفلاحين كثيفة في حقولهم، لجأنا للغابة مجددا، وفي صباح اليوم التالي، غاب رجب عن ناظري فقمت أبحث عنه،

ووجدته كما توقعت، لقد رجع لحقل الفول، إنه يبحث عن الفتاة: لن تجدها الآن هنا، البنات في عمرها يذهبن للمدرسة، قلت له، ودون أن يلتفت لي قال: ولا يوجد فتيان في الحقول الآن، إنهم يذهبون للمدرسة أيضا.

-لكننا نكره المدرسة ولن نرجع.

قلتها وحدي.. وبعد قليل كررها رجب بصوت منكسر.. ركضت داخل الحقل، لاحظت مدى الخراب الذي حل بشتلات الفول من جراء عبثنا السابق.. تناولت بضعة قرون منها، ناولتها لرجب الذي رماها بعيدا، ومشينا صامتين لبعض المسافة..

قضينا حوالي أسبوع آخر من التشرد في شعاب ووديان القرية، قضيناها مشردين حقيقيين وأكلنا الأعشاب وشربنا من السواقي، كان رجب يبكي كثيرا، ويرجوني أن نرجع، كان ما يزال طفلا ولم يكن قد أصبح رجلا صغيرا مثلي، وتحت ضغط إلحاحه، وربما تحت ضغط ظروف التشرد القاسية، رجعت ورجب لبيت عمتي طالبين وساطتها عند والدينا، بكت عمتي حين رأتني وضمتني بحرارة، ثم أخذت تضحك، وقالت لي: أين اختفيتم أيها الأغبياء الأوغاد، لقد بحثنا عنكم في كل مكان، أمهاتكم وآباؤكم وحتى أخوتكم كانوا يبكون عليكم، وكان أبوكما يفكران بإبلاغ الشرطة!

أخذنا نبكي.. مرة من شدة التأثر بمشاعر أهلينا المحبين ومرة من شدة خوفنا من العقاب الذي ينتظرنا على أيدي والدينا القاسيين، لكن عمتي طمأنتنا بأن "اجتماعا حدث للعائلتين وقد قرروا بالإجماع العفو عنكما، وقد بكت أمهاتكما كثيرا حتى أنه في نهاية الاجتماع بكى الجميع، وصاح أبوك يا رجب: أريد ولدي، ملعون أبو المدارس والتعليم"

-يعني لن يكون هناك قتلة؟

-لا، اذهبا لبيتيكما..

تفاجأت إلى أقصى الحدود من استقبال أهلي لي وخاصة أبي، كان جالسا في البيت بسبب انشغاله علي، وعلمت لاحقا أنه لم يداوم منذ عدة أيام بسبب حزنه وتوتره وانشغاله بالبحث عنا، بل إن معلمه شخصيا قد كلّف بقية العمال بالبحث عني وعن رجب!

استقبلني أهلي بحرارة بالغة، ووجدت أن أبي اشترى لي ثيابا جديدة.. وعندما التقيت برجب ليلا لنتعاطى السجائر معا، أبلغني نفس القصة عن أهله، باستثناء الثياب الجديدة، فوضع والده المادي لا يسمح له بشراء اللباس لأولاده إلا مرتين في السنة، مرة لثياب الصيف ومرة لثياب الشتاء.

قضينا جلسة التدخين الثانية لنا بعد الهروب الكبير صامتين، فمنذ الصباح استيقظ الجميع في بيتنا وبقيت وحدي، تسكعت قليلا في شوارع القرية، جميع الأطفال والشباب في سن المدرسة، قلة من العجائز يصادفونك، ويمطرونك بالأسئلة عن المدرسة، كم أكره المدرسة وكم

أشتاق لرفاقي فيها، لم أخبر رجبا بهذه الأفكار، ولم يخبرني هو بشيء، كانت جلسة التدخين قصيرة و.. مملة.

استيقظت صباح اليوم التالي باكرا، لبست ثياب المدرسة وغادرت المنزل قبل الجميع، كان الطريق من بيتنا للمدرسة خاليا إلا من شخص واحد، كان يسير في نفس اتجاه سيري ويسبقني بعدة أمتار، لم يلتفت خلفه، ولم أحاول لفت نظره، عند باب المدرسة التقينا، فقال لي: يبدو أننا وصلنا قبل الجميع!

فقلت له: ما زلنا متأخرين عن الجميع يا رجب!

-ما رأيك لو نترك التدخين بدلا من أن نترك المدرسة؟

وللحقيقة والتاريخ، نجحت الخطة الأخيرة، فلم نترك المدرسة بعدها أبدا، وتركنا التدخين أكثر من سبعين مرة خلال العشرين سنة الماضية، وما زلنا -أنا ورجب-نجدد في كل لقاء لنا خطتنا في أن نترك التدخين!!

****

من الغزل ما قتل

دخل الولد عيادتي ملهوفا: الحقني يا دكتور، أبي يتألم من قلبه، وأمي أرسلتني لأحضرك بسرعة. أرجوك أسرع يا دكتور!

عرفت الولد من ملامحه المطابقة لصورة أبيه، أسمر نحيل مع شعر كثيف مشرئب الخصلات، إنه صهيب بن عبد القادر الطاحونة وأهل حارتهم ينادونه صهيب النجيبة نسبة لأمه، وحتى والده معروف في القرية باسم عبد القادر النجيبة، فنجيبة صاحبة الصوت الأعلى في البيت وفي الحارة.

راجعت تلك المعلومات في دائرة النفوس المخزنة في عقلي، بنفس السرعة التي لملمت فيها حقيبتي الإسعافية، ثم أقفلت العيادة وانطلقت مسرعا.

صهيب النجيبة يستحثني: أسرع يا دكتور، أمي تقول إن أبي سيموت إن لم تلحقه بالسرعة القصوى!

صهيب يجري مثل ورقة خفيفة في مهب الريح، وأنا أتبعه بالخطوة الواسعة، أعرف أهل الولد وأعرف موقع بيتهم، فهو ليس ببعيد عن مقر العيادة، الحالة إسعافيه لكنني أستحي أن أجاري الولد في جريه.. واجبي إسعاف المرضى دون الإخلال بهيبتي المهنية!! الطبيب يجب أن يكون ثقيلا، هكذا يقول أهل القرية، أقلها ثقيل في حركته كما أفهمها أنا.

لم نستهلك الكثير من الوقت في رحلتنا الراجلة.

عندما وصلت دار العائلة، وجدت صهيبا واقفا بالباب ينتظرني وهو يلهث واللهفة في عينيه، دفع الباب، دخل أمامي مسرعا وهو يدعوني مرددا: تفضل، أسرع، تفضل ادخل بسرعة.. بسرعة..

ثم عاد نحوي وأمسك الحقيبة الطبية بكلتا يديه وأضاف بصوته المخنوق بسبب جفاف حلقه: إذا كانت الحقيبة تسبب لك التعب والتأخير، سأحملها عنك! ابتسمت رغم خطورة الموقف: الآن رأيت الحقيبة؟!

يبدو أنه لم يسمع تعليقي، إذ خطف الحقيبة مني وتابع دعواته لي للدخول برجاء حار، سبقني ولحقته سريعا.. على إيقاع توسلاته، انعطف يمينا ثم دفع باب غرفة على شماله بعنف، وصاح بنبرة عالية: تفضل دكتور.. سحبني بكل قوته ودفعني بيمناه..

وجدت نفسي فجأة وسط الغرفة، عيناي تستطلعان الغرفة المعتمة بحثا عن الرجل المريض؛ بدا لي أن عبد القادر ونجيبة كانا في وضعية مريبة! لم أستوعب ما رأيته للوهلة الأولى، ويبدو أنهما لم يستوعبا سبب وجودي هناك!

وقفنا جميعا في لحظة صمت طويلة وسيطر الحياء والحيرة على الجميع، ثم غطت المرأة شعرها بقطعة قماش ملونة، وقالت وهي تتصنع ضحكة باهتة: أيها الولد الملعون، فعلتها إذا وأتعبت الدكتور.. كنت أمزح يا دكتور، قلت للولد أبوك تعبان من وجع قلبه، اذهب وأحضر الدكتور ليسعف أباك قبل أن يموت من وجع قلبه.. مزح.. مجرد مزح!!

صحا عبد القادر بعد أن غفت غرائزه الهائجة، وأخذ ينقل نظرات تائهة بين الوجوه الواجمة في تلك الغرفة المعتمة، ثم قهقه بضحكة طويلة، تفقد خصلات شعره المنتصبة بشموخ ثم قال: أختك أم خليل كانت تمزح، أحبت أن تغازلني بلغة الأطباء.. قلب وبطن وأمعاء غليظة، غليظة هذه النكتة.. لكن الولد.. صهيبا!!

قال كلمته الأخيرة صياحا وهو يثب من مكانه و.. صفع الولد!! ارتج باب الغرفة بعنف وتدحرج صهيب ومعه حقيبتي من خلال الباب على وقع الصفعة، فيما سقط سروال عبد القادر نتيجة حركته العنيفة المباغتة.. فرمى نفسه فوق سرواله محاولا ستر عورته، بينما قلبت نجيبة على قفاها من شدة الضحك!!

لم أنبس بكلمة، وأنا خارج من الغرفة، لم أجد أثرا للولد، وجدت حقيبتي مفتوحة وقد تطايرت معداتي الإسعافية في كل مكان، رحت أجمع شتات أشيائي، بينما تناهي إلى سمعي صياح الزوجين، وهما يتعاتبان ويتبادلان اللوم! قال لها: أما كان عليك التأكد من إغلاق الباب جيدا؟!

فردت عليه: وما أدراني أن عزيمتك ستصحو في وضح النهار.. هكذا دون سابق إنذار!

انتهيت من جمع أغراضي في الحقيبة وكنت أهم بمغادرة الدار عندما طرقت سمعي عبارة عبد القادر وهو يقول لزوجته: سحرك لا يقاوم يا صغيرتي.. حينها كدت أفقد السيطرة على نفسي من شدة نوبة الضحك التي انتابتني،

أم خليل نجيبة الطاحونة أشبه ما تكون بعنزة برية على حافة هاوية الشيخوخة!! ضحكت طويلا وانا أسمع ثغاءها فرحا بغزل زوجها بعد أن كاد الحنق يخنقني قبل لحظات!!

....

في طريق العودة للعيادة شعرت وكأن اضطرابا نفسيا وسلوكيا قد أصابني، أسير في الشارع مترنحا تحت تأثير الضحك عندما أتذكر حركة عبد القادر البهلوانية وعباراته الغزلية، ثم أستذكر سخافة تصرف العائلة فيحتقن وجهي غضبا وأرتجف غيظا!! توقعت أن يمرّ أحد من آل نجيبة ليقدم اعتذاره عن هذا التصرف الأرعن، انتظرت طويلا ولم يأت أحد!

انتشرت الحكاية في الحي، وتناقل هواء القرية العليل ضحكات النساء في تلك الحارة الوادعة وفي الحارات المجاورة، تداولوا الحكاية مرات ومرات، ولعدة سنوات استمرت الحكاية تكبر وتكبر فكل من يسمعها لا بد أن يضيف عليها لمسته الخاصة حين يعيد إذاعتها!

....

بعد عامين ونصف العام تقريبا، دخل صهيب عيادتي وقبل أن يقول لي سبب مجيئه بادرته إحدى النساء في غرفة الانتظار ضاحكة: أيها الولد الساذج، عندما تكبر ستعرف أن علاج وجع قلب أبيك في فراش أمك لا في عيادة الطبيب!

رد الولد بحنق: لكن أبي مصاب بمرض القلب وهو يبلع عشرين حبة من الدواء يوميا..

ثم.. غادر العيادة غاضبا!!

صهيب أصغر أفراد أسرته، شبّ الجميع عن الطوق فأخواته البنات تزوجن وإخوانه الشباب رحلن للعاصمة بحثا عن لقمة العيش.

....

وتتكرر الحكاية مرة أخرى..

حيث كان صهيب وأمه وأبوه يتناولون طعامهم ويتبادلون همهمات الرضا والسعادة بوجبتهم الدسمة، صاح عبد القادر متأوخا من ألم في صدره، ونظر نحو نجيبة بعينين دامعتين.. صاحت نجيبة بولدها بكلام مبهم، لم يفهمه صهيب، ففم نجيبة كان ممتلئا بالطعام، وخرجت بقايا الطعام مثل قذائف المدفعية في وجه صهيب، الذي بقي تائها لا يعرف ما يجب عليه فعله، ثم جاءه التوضيح في الإعادة: ولدي حبيبي، اذهب إلى الدكتور وأحضره بسرعة، تحرك.. انهض بسرعة.. ألا تلاحظ أيها الغبي كم يتألم أبوك من قلبه.. انهض مسرعا يا حيوان!!

وقف صهيب مشدوها، وهو يرى أمه تحتضن أباه، وتميله للوراء مائلة معه وهي تقول له: ألم أقل لك يا حبيبي لا تثقل من الطعام الدسم والمالح، لماذا لم تسمع النصيحة؟! تسطح على ذراعي، تسطح بهدوء واسترخ..

ثم التفتت نحو ولدها وصاحت بغضب شديد: أما زلت هنا؟ طر وأحضر الدكتور، أبوك مصاب بنوبة قلبية وأنت ما زلت (تتسمم) بكل برود؟!.

رمى الولد إصبع الكباب المشبع بالدسم من يده، وقام مغادرا مائدة الطعام على تحسر وعجلة، وبدلا من أن يقصد عيادة الدكتور-أيّ دكتور-راح يتسكع في شوارع الحارات البعيدة، مفسحا المجال لوالدته كيما تسكّن أوجاع قلب أبيه على راحتها! وبعد أن تعبت رجلا صهيب من المشي، دقّ باب رفيقه ناصيف، فتحت أم ناصيف الباب وبادرته: لقد رأيتك من النافذة وأنت تدور في حارتنا منذ وقت طويل، هل تراقب إحداهن في الجوار؟ ما زلت صغيرا على قصص العشق أيها الشقي!

قال وهو يبتسم بحياء ظاهر: لست أنا العشقان، إنهما أمي وأبي، لقد تركت لهما البيت والغداء ليشبعا حبا وكبابا.

أضافت أم ناصيف بسخرية: تضحية كبيرة منك أن تترك العاشقين الهرمين يستعيدان بعض شبابهما.

قال وهو يصافح ناصيف الذي خرج من غرفته لاستقباله: أنا لست ضد العشق، ليعشقا ما شاء لهما الهوى، لكن أليس من الذوق أن يتركاني أكمل وجبة الغداء؟ لقد صاحت بي أمي اترك الطعام لأن قلب أبيك يؤلمه..

قال ناصيف: ربما قلبه يؤلمه فعلا.

صهيب: هل تصدق يا رجل؟! في المرة الماضية جعلاني أضحوكة الأمة كلها..

-لكني أعرف أن أباك فعلا مصاب بمرض قلبي..

-صحيح.. لكن وضعه اليوم كان ممتازا وكان يلتهم الطعام مثل ضبع بري..
انتفضت أم ناصيف وصاحت من المطبخ: تأدب يا صهيب إنه أبوك!
رد صهيب بصوت خفيض: والله من حرقة قلبي.. أنا اشتريت الغداء من عرق جبيني، ولم يتركاني استمتع به.. إنها فرحة أول راتب لي، ولم تتم!

....

في سرادق العزاء في بيت أبي خليل الطاحونة، ازدحم المعزون، وكنت جالسا هناك بينهم عندما سأل أحد الموجودين: كيف حدثت الوفاة؟ فرد عليه أبو صافي، جار عبد القادر الأقرب: والله يا سيدي كنت متمددا في بيتي، قيلولة بعد الغداء، عندما سمعت صراخا من بيت جارنا عبد القادر، توقعت أنه مجرد نقاش عادي بين نجيبة وزوجها، أقصد المرحوم، فنحن متعودون على صياحهم وصراخهم، لكن بعد قليل بدأت أسمع طرقا قويا على باب بيتي، وأم خليل تستغيث، وعندما فتحت الباب قالت لي والدموع تملأ عينيها: أدركني يا أبا صافي، عبد القادر ينازع، لقد أرسلت صهيبا في أثر الدكتور، لكنه تأخر كثيرا أرجوك اذهب وأحضره..
قلت لها: وأين تتوقعين أن أجد الولد الآن؟
قالت: بل أريد الدكتور.. الدكتور بسرعة لو سمحت!!
فهرولت من فوري إلى عيادة الدكتور، فوجدتها مغلقة، كان وقت استراحته، فذهبت لبيته، قالوا لي الدكتور نائم، فصحت بهم أن أيقظوه، فجاري وحبيبي أبو خليل ينازع، لم نكن نعلم حينها أنه كان قد فارق

الحياة، فلم يتأخر الدكتور كثيرا، كان مترددا بالمجيء، وسألني: هل أنت متأكد أن جارك –أبا خليل-مريض فعلا أم أن الأمر مجرد مزحة سمجة من جارتكم نجيبة؟؟ فقلت له اسمع يا دكتور.. وهنا صاح أخو أبي صافي به: الدكتور موجود في الزاوية المقابلة لك ويسمعك، فضحك الحضور بصوت خافت ونظروا نحوي، ثم عادت نظراتهم نحو أبي صافي الذي تابع: عظّم الله أجرك يا دكتور، يشهد الله أن الدكتور لم يقصر، وجاء معي هرولة، وعندما وصلنا كان المرحوم قد فارق الحياة، رحمة الله عليه، احتشاء حاد وواسع في القلب، أليس كذلك يا دكتور؟

وقبل أن أجيبه سمعنا همهمة عالية وصياحا من جهة سرادق النساء، وقال أحدهم: لقد وصل صهيب.. ابن المرحوم..

وعندها خرجت أم خليل وهي تولول وتصيح: مات أبوك يا صهيب، أين تركتني ورحت، لقد مات أبوك لأنك لم تحضر الطبيب!!

احتضن صهيب والدته وقال لها وهو يجهش بالبكاء: ظننتك تمزحين يا أمي، توقعت أنك اشتقتِ لمغازلة أبي، فتركت لكما المنزل والحارة والقرية لتشبعوا غزلا!!

فقالت نجيبة بعصبية: لقد شبع أبوك موتا يا ملعون الوالدين وأنت تقول لي اشبعوا غزلا!!

ليس للكاذب توبة

جمعتني المصادفة البحتة بأبي سليم، كنت أؤدي واجب العزاء في بيت (التشريني)، وإن كان من الطبيعي لقاء الناس في مناسبات كهذه إلا أنني ذهبت إليهم لأداء واجب العزاء بعد أسابيع عدة من وفاة صهرهم وابن عمهم فارس التشريني، فقد أخرني المرض والنقاهة التي قضيتها في العاصمة بعد العملية الجراحية.. منذ دخلت بيت التشريني وبعد تحيات السلام وعبارات المواساة الصادقة استلم أبو سليم دفة الحديث، أنا شيخ معروف في المنطقة كلها والناس تقدرني وتحترمني، وحرصت دائماً على الحفاظ على احترام الناس ومودتهم.

أبو سليم ابن قريتنا، وهو شخص لطيف عموما، متحدث لبق، بدأ حديثه بالترحيب بي في بيت التشريني رغم أن كلانا ضيف عندهم، ثم تحدث عني وعن مناقبي وشهرتي في عرض البلاد وطولها، واحترام الجميع لي ولمسيرتي الخيرية العظيمة.

لست ممن يحبون المديح في الوجه، لكن حديثه أدخل السكينة والتواضع إلى روحي! أبو سليم يتحدث بصوت جهْوري ملوِّنا حديثه بكل أنواع المحسنات اللفظية، ذاكرا بعض المواقف والأمثلة التي تثبت صدق كل كلمة طيبة قالها بحقي وبحق أسرتي. صحيح أني جئت لأداء واجب العزاء، لكن

القوم كانوا في سهرة أشبه بالاحتفال بعد مضي فترة تلقي التعازي ووجود أقربائهم القادمين لزيارتهم من أماكن متفرقة في الريف والمدينة. سيطر أبو سليم على مجريات الحديث، وأصخيت له بكامل الود والرضا حتى انحرف عن مسيرته السابقة، وابتدأ يتحدث عن نفسه، ولم يترك حسنة أو عملا نبيلا إلا ونسبها لذاته الخاطية، وأخذ يصعّد من مديحه لنفسه، في حقيقة الأمر ما كان في نيتي أن أكسر مجاديفه ولا أن أحطم غروره فقد مدحني الرجل قبل أن يمدح نفسه، وأشبعني إطراء وثناء قبل أن يخصّ نفسه بفيض الإطراء الغامر..

تسونامي الكذب اجتاح كل فرصة للسكوت عليه، ورغم هذا صبرت وسكت.. لكن عدو الله وعدو نفسه أبى إلا أن يختم حديثه مشيرا نحوي بسبابته المشؤومة قائلا: أستحلفك بالله يا شيخ صبري، هل قلتُ إلا الصدق؟!

صمت الجميع بانتظار تعليقي أو ردي.. اكتفيت بمشاركتهم في صمتهم، لكن اللعين، أعاد السؤال بثقة أكبر: أستحلفك بالله أن تقول لهؤلاء الناس هل عرفت عني غير الصدق والأمانة؟!

تكرُّرُ مشهدِ الصامتين مع جرعة من المهابة، زاد من ثقة أبي سليم بتحقيق هدفه النهائي في مرمى الحضور وصاح ثالثة: ناشدتك الله.. استحلفتك بالله يا شيخنا أن تتكلم وأن تشهد بالحق هل عرفتني إلا صادقا صادحا بالحق أمينا مخلصا؟!

لم أعد قادرا على ضبط أعصابي أكثر.. وما وعيت على نفسي إلا وقد انتفضت واقفا، والغضب يتقاطر عرقا على جبيني ومن مسام راحتيّ، ورحت ألوح بعصاي في وجه أبي سليم وسط ذهول الحضور: استحلفتني بالله ثلاثا، وأنا أحلف بالله الآن ثلاثا ما عرفتك إلا كاذبا منافقا أفّاقا!!

ران الصمت على الجميع بضع لحظات ثم انفجر بعض الحضور من الشباب بالضحك، ثم عاود السكون هيمنته على المكان.. وفجأة شق عباب الحرج صوت أبي سليم: لله درك يا شيخنا، أرأيتم لما نحن نحترم هذا الشيخ ونجلّه، إنه يقول الحق ولو على قطع رأسه، أستحلفك بالله إلا أعطيتني يدك لأقبلها احتراما لصدقك وإجلالا لمصداقيتك.

سحبت يدي من بين يديه وقد استفزتني عبارته الأخيرة فوق استفزازاته السابقة، فخرجت عن وقاري وأخذت أزمجر بغضب: أيها الشقي الملعون، هل من الضروري أن تستحلفني كل مرة بالله، من عشرات السنين وأنا أحضر مجالس كذبك وأسكت احتراما لسنك، وتقديرا مني أن كل الناس تعرف أنك مفطوم على الكذب، تحرجني أمام الناس وأسكت، لماذا تحرجني أمام الله؟ لماذا تستحلفني المرة تلو المرة، هل تعتقد أن الشيخ صبري يستحي منك ولا يستحي من الله؟!

رسم أبو سليم ابتسامة واسعة على وجهه، ثم تضاحك بصوت مسموع وقال: بالله عليكم كيف لنا ألا نحترم ونجلّ شيخا بهذه الصراحة وهذا الصدق، أيها الناس، اشهدوا بالله عليكم.. اشهدوا علي.. أعترف أمامكم جميعا أني

قضيت حياتي أكذب وأكذب، لكنني اليوم أعلن بوجودكم أنني سأتوقف عن الكذب نهائيا، وأعلن توبتي النصوحة على يد شيخنا الجليل، والله شهيد على ما أقول.. وقبض بكلتا يديه على يدي محاولا تقبيلها لكنني تمكنت من سحبها بصعوبة، وقلت له: لا تورط نفسك بمزيد من التعهدات الكاذبة يا أبا سليم، الكذب فيك مركب عضوي..

قاطعني ناصر التشريني كبير عائلة التشريني وصاحب البيت الذي نحن فيه مجتمعون: يا شيخنا الكبير، الله يقبل التوبة، فلماذا تحرم هذا الرجل من حق المحاولة؟!

قلت له موجها حديثي للجميع: رأيت في حياتي لصوصا اعتاشوا على السرقة دهرا ثم تابوا عن السرقة وصحّت توبتهم، ورأيت مدمني مخدرات فعلت بهم المخدرات الأفاعيل، لكنهم صحَوا وتابوا وصحّت توبتهم، رأيت كل أصناف الخطيئة وكل أنواع الجريمة وكل أنواع الضلال يتوب أصحابها عنها فينجح بعضهم أو معظمهم وتصحّ توبتهم..

-اذاً أعط أبا سليم فرصته، قال ناصر التشريني بلطف.

-كنت أقول لكم كل أنواع الضلال لها توبة قد تصدق، إلا الكاذب فليس له توبة.

-سامحك الله يا شيخ، سأثبت لك وللحاضرين صدقي وصدق توبتي.

قال أبو سليم هذه الكلمات بصوت متهدج منكسر ثم غادر المنزل دون أن يودع أحدا منا!

هممت بالمغادرة مداراة لانفعالي وحرجي، تمسّك بي الحاضرون، وأصرّ السيد ناصر التشريني أن أبقى لمشاركتهم طعام العشاء: "فمنذ تشريفك بيتنا المتواضع يا شيخ صبري لم نتبادل أكثر من جملتين إذ هيمن أبو سليم على الحوار والمجلس، ونحن مشتاقون لحكمتك ولأحاديثك الشيقة"

ناصر التشريني إنسان على درجة عالية من الثقافة ويتمتع بسمعة طيبة على مستوى الأعمال الخيرية في المنطقة كلها.

تعشينا معا وتشعبت أحاديثنا في تفاصيل فقهية، ونقاشات معمقة حول الجذور اللغوية لبعض الكلمات الشائعة والطريقة الأمثل لتوظيفها، واكتشفت أثناء حوارنا أن بين الحضور أستاذين جامعيين وثلاثة أطباء ومهندسين.. شرد ذهني لبعض الوقت وتساءلت كيف سكتنا جميعا لنترك أبا سليم الكاذب الثرثار يستثمر السهرة لاستعراض كذبه ومغامراته الوهمية!! ثم لم ألبث أن عدت لمتابعة غمار النقاش العلمي مع هذه النخبة الثقافية.. حتى غاب أبو سليم عن نطاق رؤيتي العقلية نهائيا..

انتهت سهرتنا الثقافية الراقية وودّعني القوم بالمزيد من الود والتقدير.

وصلت منزلي وأنا أرفرف بأجنحة النشوة الغامرة من آثار الحوار الموسوعي الراقي، وكنت متشوقا لنقل مجريات سهرتي السعيدة لزوجتي الحبيبة..

دخلتُ بيتي وقبل أن ألقى السلام على زوجتي، انفجرت في وجهي بركانا من الغضب والصياح: ما الذي عاد بك، ألم تكن سعيدا وفرحا حيث كنت؟!

-أي والله وأيما سعادة..

-ارجع لأحبابك، ارجع لبسطك وسهرك وسكرك!

-ما بك يا امرأة، وأيّنا السكران؟ ماذا جرى لك؟!

-اسمع.. هذه الابتسامات البريئة وتصنّع العفوية والسذاجة لا تمشي علي!!

-يا الله أي منزل خفيض أنزلتني بعد أن كنت أحلق في أعلى وأحلى سماء؟!

-طبعا مراهقة الخمسين، ألا تشعر باحمرار في وجنتيك وتورما في خصيتيك؟!

وصل الأمر للخصيتين؟! الأمر خطير جداً، وعلي أن أمارس أقصى درجات الحكمة وضبط النفس!!

وهكذا وبعد مناورات طويلة من الشدّة أحيانا والملاطفة أحيانا أخرى، وصلتُ لزبدة الموضوع، بل ربما هي ثُـفالة الأمر وسفالة أبي سليم!

أبو سليم مرة أخرى!!

انتهى حواري الحاد مع زوجتي الحبيبة، فطلبت منها أن تلبس ثياب الخروج، ثم أجبرتها على ذلك، وركبنا السيارة عائدين إلى بيت ناصر التشريني، رغم توجسي أن يكون الوقت قد تأخر علينا.. وصلنا بيت التشريني، تفاجأت بأن القوم ما زالوا على جلستهم، وإن كان بعضهم قد ارتدى ثياب النوم، وتفاجأوا هم بعودتي قليلا، لكنهم لم يستطيعوا إخفاء مفاجأتهم بوجود زوجتي معي، ولم يفهموا بداية سرّ هذه العودة ولا السرّ الصعب بخصوص مرافقتي اللطيفة! وبمجرد دخولي سألتهم: استحلفكم بالله ألم أقل لكم قبل قليل أنه ليس للكاذب توبة؟!

قالوا جميعا: بلى!

ثم أكمل ناصر التشريني: لا بد أنك أحضرت معك إثباتا عمليا لصدق مقولتك. وأضاف الطبيب الشاب: أو جئت -بحكم مصداقيتك-لتعتذر عن مقولتك وتسحبها!!

ضحكت وقلت لهم: أفضّل أن تستعملوا حكمتكم أنتم لتحكموا.. اعلموا يا أخوتي أنه بعد أن قلتُ عبارتي تلك، ذهب أبو سليم مباشرة من هنا قاصدا بيتي، وأبلغ زوجتي، أن الشيخ صبري في بيت ناصر التشريني، جاء يخطب ودّهم ويطلب يد أختهم، أرملة المرحوم فارس..

فتابعت زوجتي والخجل غالب عليها: وقد أقسم الأيمان وأغلظ في حلفانه على صدقه في كل كلمة.. حتى أنه ذكر بعض التفاصيل عن المهر وترتيبات العرس وعن بيت الزوجية الجديد!

-كم يشرفنا أن يكون الشيخ صبري صهرنا..

فقاطعته زوجتي بانفعال: وهل تظنني والدته وجئت هنا لأخطب أختك له يا سيد ناصر؟!

-هدئي من روعك يا أختاه، أحببت أن أظهر لك مدى احترامنا وتقديرنا للشيخ صبري.. لكن الحقيقة أن أبا سليم هو الذي طلب يد أختنا منذ عدة أيام، ونحن سألناها رأيها..

وهنا ظهرت أرملة المرحوم، سلّمت على زوجتي، وقالت لها: عشقت زوجي-المرحوم فارس-منذ أيام المراهقة وقضيت معه أجمل أيام عمري وأسعدها،

وقد ترك لي المرحوم ستة أولاد، أكبرهم في الثانوية، والله يا أختاه لو عرضوا عليّ رجال الأرض ما بعتُ ذكرى زوجي بهم جميعا.. فكيف إذا كان طالب القرب رجلا ثرثارا مهذارا كأبي سليم؟!

شعرت زوجتي بالخجل من نفسها ومني ومن الحاضرين جميعا، وحاولت أن تعتذر بكلمات مشتتة تائهة، فتدخل ناصر التشريني: أقدر سبب مجيئك سيدتي مع زوجك، وأستطيع تخيل حجم الكذبة التي رماكم بها هذا الأفّاق، لكن يسرني أن أخبرك ما جرى الليلة حرفيا، رغم ظني بأن الشيخ قد رواه لك، لكن ليطمئن قلبك ولتضحكي كما ضحكنا عندما صاح الشيخ صبري بأبي سليم: "أقسم بالله ثلاثا ما عرفتك إلا كاذبا منافقا أفّاقا"

ضحك الجميع بما فيهم زوجتي الطيبة، وخفّت شحنات التوتر بيني وبينها، وسرى في أوصالي تيار من الثقة المتجددة، فقلت لهم وعيناي في عيني الطبيب الشاب:

-هل صدقتموني عندما قلت لكم أنه "ليس لكاذب توبة"؟!

****

حقول الزنبق والفجل

لجأ الناس إلى سفح هذا الجبل منذ عشرات السنين، هربا من تجار المدن وجشعهم، وخوفا من عسكر الحكام وجلاديهم، بنوا بيوتهم من حجارة الأرض وطينها، وسقفوها بجذوع الأشجار وأغصانها، ثم عادوا وفرشوا فوقها طبقات سميكة من الطين، وتشكلت القرى وانتشرت وتوسع العمران على هذا الطراز، عاشوا هنا لعشرات السنين يزرعون حقولهم، يسقيها المطر، يقطفون غلالهم ويسبّحون بحمد ربّهم على ما أعطاهم، وفي غياب أي مرشد اجتماعي أو خبير اقتصادي، أعادوا تجارب آبائهم في الزراعة والبناء والإنجاب، وبقيت علاقاتهم طبيعية وبسيطة مع بعضهم البعض ومع الطبيعة.. في الشتاء يوقدون الحطب –الذي يقطعونه من الأحراش المجاورة–طلبا للدفء، وفي الصيف يستظلون في ء أشجارهم الوارفة.. لعب الوعي الصحي –تحديدا–دورا مهما في تكاثرهم السريع وتضاعف أعدادهم، إذ لم تعد جائحات الحصبة والجدري والملاريا وأمثالها تحصد آلاف الأرواح في كل هبة عاصفة لأي مرض منها.. تكاثرت أعدادهم وضاقت الأرض بأبنائها وقصرت عن الإيفاء باحتياجاتهم الغذائية المتعاظمة، وبالصدفة كانت القارتان الجديدتان تطلبان مئات الألوف من الأيدي العاملة لجمع الذهب وقطاف مواسم الثراء. سافر جد العائلة –

أحمد المجواني-مع الذين سافروا، شقّ طريقه في بلاد السامبا، بائعا متجولا على عربة يدفعها بيديه، وفي ليلة عاصفة ماطرة، مات على مفترق أحد الطرق في سامباولو البرازيلية، دفنه أولاده هناك، ودفنوا معه الفقر الذي حمله من بلدهم الأم، احتفظوا فقط بذكرياته العامرة عن أجمل الأوطان، وحكايات الحب والشوق والحنين لأهله وبيته وجيرانه، تقاسموا تركته من حلم العودة للجذور الدافئة التي تمتد عميقا في جوار سواقي الماء التي تتصل بمزاريب الغيم في أعالي السماء.

حقق الجيل الأول طفرة اقتصادية كبيرة جداً إذا ما قارناها بمستوى الأب المؤسس، لكنها صغيرة جداً إذا ما قارناها بما حققه يونس بن سانتياغو أحمد المجواني..

يونس هو أنجح أبناء الجيل الثالث من سلالة الاغتراب هذه، وكان صاحب النصيب الأكبر في تركة جده المؤسس من حلم العودة!

حقق يونس نجاحات مذهلة في أسواق المال والأعمال، وفي عمر الثامنة والستين قطع تذكرة باتجاه واحد، وعاد لقريته، لم يجد فيها أثرا لجده أحمد، المهاجر الأول، فقد تقاسم أبناء عمومته كل ميراث الجد الأكبر فيما بينهم، وزعوا الأرض والحمير والبقرات والعنزات بينهم بالتساوي، وتشاركوا في البغل الوحيد، يستخدمونه بالتناوب حتى نفق البغل!

لم يتركوا ليونس أو لبقية سلالة أحمد المهاجر أي شيء، حتى جرار الفخار وفوانيس الكاز -التي حلم يونس أن يشرب ماءها أو يستضئ بنورها

الرومانسي المفعم برائحة النفط الثقيل-اندثرت مع تفاصيل دقيقة أخرى ما زال يحتفظ بها في ذاكرته من حكايات الجد الأول.

تفاجأ يونس كثيرا بالأمر، فمعلوماته المتوارثة عن جدهم الأول أن القرية مجرد تجمع لبعض الفلاحين الفقراء بعيدا عن العالم والعلم، بعيدا عن المدينة والمدنية!

أذهله ما رآه من النشاط السياحي والعمراني والتجاري في القرية، وفاجأه أيضا عدد الشهادات العلمية العالية بين شباب وشابات القرية!

أنسته هذه القصص للوهلة الأولى مشروعه الأول والأهم.. يريد أن يسكن في أحد بيوت العائلة، خاصة بيت الجد أحمد، طبعا كان البيت قد هُدم وأعيد بناؤه عدة مرات مواكبة للتطور الاقتصادي والعمراني في القرية والبلد.

لم يجد يونس صعوبة في استعادة ملكية البيت بفضل المبلغ المالي الكبير الذي دفعه لأيوب المجواني، أحد أبناء عمومته من حيث النسب وأقرب أصدقائه الجدد لقلبه.

اكتشف بعد أيام في سكنه الجديد أن البيت لا يملك أية خاصية مميزة لا في الموقع ولا في شكل العمران ولا في مساحته، السعر فقط كان مميزا جداً، وهمس كل زواره الذين تقاطروا لتهنئته بالبيت الجديد، أن سعر البيت كان (غاليا) جداً، لكنه بقي غاليا أكثر على قلبه لاعتقاده أن جده الأول أوقد ناره يوما ما هنا.

حرْصُ آبائه وأجداده على التحدث باللغة العربية في البيت عبر أجيال الاغتراب جعل لغته العربية قريبة جداً من لغة أقرانه من أبناء بلدته، بل كان يبزّهم بثقافته وحافظته القوية خاصة للحكمة وللشعر العربي قديمه وحديثه!

تعمّقت علاقة يونس مع أبناء قريته وأقربائه بسرعة كبيرة، ولأن الجو خريفي لطيف، فقد قضى شهره الأول في سهرات على أسطحة بيوت القرية وشرفاتها ذات الإطلالات الخلابة، شعر خلال هذه الأسابيع القليلة كأنه يزداد شبابا مع مرور كل يوم ويصغر سنة بعد كل سهرة.. كانت السعادة والحب بل والمرح أيضا يحيطون به من كل صوب.

وضمن هذا الزخم العاطفي والإنساني الكبير أبلغ يونس أصحابه بكل سرور: لن أترك هذه القرية أبدا.. إذا أراد أولادي وأحفادي رؤيتي فأنا هنا أنتظرهم. ونقل هذا القرار عبر التلفون لأبنائه وأحفاده، وأخبرهم أيضا أن البلد متطور جداً، ولم يبق من الصور التي رسمها جدكم الأول في أذهاننا عن القرية إلا طيبة أهلها وسمو أخلاقهم، يا الله ما أجمل الوطن الأول!!

تعلم يونس الألعاب التقليدية الشائعة في القرية، خسر جولاته الأولى وتقبل الخسارة برحابة صدر، وشيئا فشيئا ارتقى مستواه وتعلق بأصحابه وشركائه في اللعب والسهر والسمر، مرت شهور العسل الدافق سريعة، وبخلاف مشاعره التي تزهو كل يوم عن سابقه، بدأ يونس يشعر بفتور علاقة أهل البلدة به، بل بدأ يشعر ببعض الجفاء، ولما سأل ابن عمه أيوب

عن سبب تعاملهم الجاف معه، أجابه أيوب بفظاظة: أنت السبب، كانت القرية تعيش بهدوء وطمأنينة حتى جئت أنت فخربت بيوت الناس..

-أنا؟!!

-ارتفعت أسعار الأراضي ثلاثة أضعاف، وكل من يريد أن يشتري، يجد سعادتك قد سبقته بأموالك الطائلة لحجز الأرض لك، بنات القرية، الصغيرات منهن وحتى العوانس والمطلقات يتحدثن عن مراسيلك السريين الذين يخطبون ودهن؟

-مراسيلي يخطبون ودهن؟ لمن؟

-لك.. لأولادك.. لست أدري.. لكنك حولت كل شيء في القرية إلى سلعة تباع وتشترى، لقد دمرت قريتنا، ودمرت البساطة والصدق والعفوية والمحبة..

-هكذا إذا يا ابن عمي.. أنا أشتري الأراضي، وأخطب النساء والصبايا؟!

-بل لقد رفعت أسعار اليد العاملة، كل الشباب يقولون إنك وعدتهم بوظائف كبيرة في مشاريعك المقبلة، وبعضهم يقول إنك وعدتهم بعقود عمل في الخارج، لذلك لم يعد أحد يرغب بالعمل في الفلاحة أو غيرها من الأعمال الشائعة في القرية.

قضى يونس ليلة من الأرق والأسى بعد هذا الحوار الحار، وبعيد الفجر استقر رأيه على الحل الناجع. أصدر يونس بيانا مكتوبا، وطلب من أحدهم توزيعه ولصقه على جدران القرية، أعلن في بيانه أنه لم يفاتح أي شخص في

القرية ذكرا كان أم أنثى كبيرا كان أم صغيرا، بأي مشروع تجاري، وأنه لن يشتري أرضا أو بيتا آخر في تلك القرية أبدا، ولم ولن يخطب أي أنثى أبدا، لا له شخصيا ولا لأي فرد من عائلته، وأنه لن يستقبل أحدا بعد اليوم في بيته لا ضيفا ولا زائرا، وأضاف في نهاية البيان: "أرجوكم توقفوا عن نشر الأكاذيب والإشاعات عني، لا أريد منكم إلا عفوية القرية وبساطتها، قد عشت عمري غريبا في بلاد غريبة، فلا تجعلوني غريبا في بلدي وبين أهلي".

علق أيوب على البيان وهو يضحك: لله درّك من محتال يا ابن عمي، يريد أن يوهمنا أنه زاهد بكل شيء، ليشتري منا كل شيء بسعر زهيد!!

أجابه أبو نجيب: هذه هي الدعاية التي تسبق الغزو الاقتصادي، لن يستطيع ابن قريتنا أن يضحك علينا، نحن من طينة واحدة ونفهم بعضنا جيدا!

لقد كان وصول يونس للقرية، هو الحجر الذي حرّك ركود الحياة في تلك القرية الوادعة، فظهر كل طينها وعكرها.. مرت الأيام ويونس يقارع الإشاعات المتجددة، ولم يكن لنفيه المتكرر لها أن يغير شيئا من قناعات الناس: لقد حول القرية لبورصة للمزادات، وكان يكفي ذكر اسمه في إطار أي صفقة لتحلق أرقامها أكثر وأكثر!!

استسلم يونس لتيار الإشاعات، ووجد أن الحل الوحيد هو أن يلقي بنفسه في نهر أيامهم ويترك للتيار أن يجرفه معه كيفما أراد، فهنا في هذه الأرض إما أن تكون مثلنا أو لا تكون!

وهكذا بعد مدة من الزمان.. تزوج يونس من أرملة حسناء متعلمة، واشترى قطعتين صغيرتين من الأرض زرعهما في العام الأول ورودا وزنابق، وفي العام التالي زرعهما بصلا وفجلا وبقولا!!

اندمج يونس في القرية وحياتها ولم يكن من السهل تمييزه عن باقي سكان القرية إلا ببرنيطة قديمة كان يعتمرها أثناء فلاحته في الأرض، هي البرنيطة التي كانت تعكس أشعة الشمس يوم وصوله للقرية، والآن صارت مثل غربال تراثي عتيق.

تابع يونس زراعة أرضه وحصاد مواسم الغلال بمساعدة زوجته البدينة وما زال يقضي معظم أوقات الصيف بالمشاجرات مع جيرانه وأبناء قريته من العائدين الآخرين على (دَوْر) سقاية الأرض!!

آخر مرة حاول يونس أن يشتري قطعة أرض جديدة، فوجئ بالثمن الباهظ الذي طلبه منه مالك الأرض، وفي المساء وبينما كان يشرب الشاي ويلعب طاولة الزهر مع ابن عمه، شرح له أيوب السبب:

لقد عاد مهاجرو الداخل من دمشق وغيرها، وهم يتنافسون فيما بينهم لشراء البيوت والأراضي، بعضهم سافر أو هاجر منذ عقود وباع كل شيء، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم لن يرجعوا أبدا، واليوم وجدوا أن القرية هي الملاذ الأفضل لقضاء شيخوخة هادئة ومريحة..

قاطعه يونس: لا تشرح لي معنى الحنين للجذور يا أيوب.. فقط سألتك عن البورصة التي تتحرك صعودا كلما هبت نسمة شوق تحمل بعضا من العائدين!!

****

غزل آخر الليل

الساعة العاشرة ليلا.. عادة ما تكون المدينة الجامعية تغلي بالحركة والحيوية في مثل هذه الساعة، إنها فترة الامتحانات النهائية وربما انشغل الطلاب بمذاكرتهم.. عبد الحليم يسير شاردا نحو باب المدينة الجامعية ليشتري علبة سجائر، يقطع شروده صوت طقطقة حذاء نسائي، يمزق صمت الليل الهادئ.

المسافة لا تزال بعيدة بينه وبين الفتاة التي عبرت الباب لتوها، أخرجت بطاقة السكن وأظهرتها للحارس، بنظرة عابرة وسريعة أومأ لها الحارس أن تدخل، ثم دخل مكتب الحرس بقرب الباب ليتابع قيلولته المستمرة.

وثبت فكرة جريئة لذهن عبد الحليم، إنها فرصته ليجرب! طالما تمنى أن يفعل واليوم وجد الفرصة مواتية.. الشوارع خالية تماما، أعاد التأكد من هذا الأمر بدورة سريعة حول نفسه استعرض فيها المحيط، فعلا الشوارع خالية، وعلى بعد أمتار قليلة توجد شابة، يتوقع أن تكون جميلة، "فهي أنثى، وغالبا كل الإناث جميلات"!!

لم يغازل فتاة في حياته، الجميع يعرف أنه شاب خجول، رغم أنه شاب وسيم ومثقف، لكنه وحيد، لا صديقات عنده، لا يمكن أن يتحدث مع

بنت لا يعرفها، ولا يمكن أن يتعرف على بنت إلا بأسباب موجبة وضمن نطاق الضرورات القاهرة، لأنه خجول.. خجول جداً!

أستاذة اللغة العربية في الكلية قالت له: لا تقل إنك خجول، بل قل إنك رجل حيي، فالخجل صفة النساء والحياء من صفات الرجل.

-نعم أستاذة أفهم عليك.. لكنني أعرف نفسي جيداً.. أنا رجل خجول!!

يضحك في سرّه، ويتذكر أيضا.. في الأمس فقط سأل صديقه (غالب) عن سر جرأته في مخاطبة البنات والتغزل بهن في الشارع وفي الأماكن العامة، غالب أوضح له الأمر بتواضع: ببساطة لا يوجد أي سر، أنا شاب، رجل، والرجل يجب أن يكون جريئا وعنيفا بالتعبير عن مشاعره، البنت بالعكس يجب أن تكون خجولة ولا يجوز أن تبادر بإظهار مشاعرها أبدا، وإلا أصبحت ذكرا بلا شوارب!

-يعني أنا لست رجلاً؟

-لا تقسُ عل نفسك، لكن عليك أن تكون أكثر جرأة، جرب مرة واحدة، الأمر سهل، سهل جداً، انظر إليّ وتعلم.. هل ترى هذه الفتاة التي عبرت المدخل الرئيس؟

-نعم، ماذا ستفعل؟

-امش بشكل عادي وراقبني، الأمر غاية في البساطة والسهولة..

عبد الحليم يراقب الفتاة الداخلة من الباب، تسير بعكس مسيرهما، شابة طويلة تتفجر حيوية وغنجا في مشيتها، كاد أن يتعثر عبد الحليم توجسا

من رهبة الموقف، وعندما اقتربا منها، مال غالب نحوها وسألها: الحلو متأخر بالدوام اليوم.. رمقتهما بنظرة رقيقة، ضحكت وتابعت مسيرها..

-هل رأيت ما أجمل ضحكتها؟

-نعم!

-ورأيت ما أبسط موضوع المغازلة؟

-فعلا كانت شيئا يسيرا.. عابرا وسارا!!

الآن قرر عبد الحليم سريعا.. سيعيد ما فعله غالب ليلة أمس، وستضحك له الفتاة كما ضحكت سالفتها لصديقه غالب، وقد يتمكن من إضافة جملة ثانية إذا وجد تجاوبا من الفتاة ولم لا، فالساحة خالية تماما وليس على الفارس إلا أن يتقدم ليظهر مواهبا لم يتمتع بها أبدا، ليكن.. من هذه اللحظة سيكسر القواعد التي عرفها عنه الجميع.. سيبادر إلى مغازلة فتاة وجها لوجه.. الفتاة تقترب منه أكثر، "وإذا تأخرت أكثر فقد تصبح المواجهة جنبا لجنب.. وعندها سنسميها مجانبة بدلا من مواجهة". تذكر أستاذة اللغة العربية وضحك في سره من جديد.. الضحكة كانت أقصر من سابقتها، فالفتاة أضحت موازية له، ومعركة المواجهة مع نفسه اقتربت بشكل حاسم.. صاح في سره "هجووووم".. و.. بصوت متهدج وجسم مترنح، قال للفتاة لحظة وصولها لمحاذاته:

-"شو" كأن الحلو متأخر بالعودة من الشغل؟

لم ترد الفتاة ولم تبدِ أي ردة فعل وكأنها لم تسمعه، وتجاوزته بنفس المشية السابقة، فدار مئة وثمانين درجة وقال هذه المرة بصوت عال ثابت النبرة: يبدو لي أن دوامك ليلي يا أمورة!!

لم يتمّ جملته الأخيرة، فقد استدارت الفتاة نحوه وهي تصيح به بصوت عال بأقذع الألفاظ والشتائم، تجمّد في مكانه مذهولا للحظات، ثم أخذ يبتعد للخلف وهو ما يزال يحدق بالفتاة محاولا استيعاب ما يجري، ازدادت سرعته في التراجع، مع تصاعد حدة صوتها وانحطاط مستوى شتائمها، قذائف مرعبة ومخجلة، شعر ببعض الراحة مواسيا نفسه: الحمد لله لا أحد هنا ليشهد (بهدلتي)، وأدار وجهه نحو باب المدينة الجامعية يريد الفرار، حاول أن يجري، لم يتمكن من السير خطوة واحدة، تاه وسط ذهوله وحيرته وتشتت أفكاره وهدر كرامته، شعر بنفسه مكبلا بقوة وعاجزا عن الحراك..

قبضتان قويتان أمسكتا بخناقه، وذراعان مفتولتان التفّتا حول صدره النحيل، ثم سمع صوتا يخرج من البركان الذي يحتجزه: هل أساء لك يا آنسة؟ هل تريدين أن أمسح لك الأرض به؟؟

تابعت الفتاة طريقها دون أن تعير الحارس الملهوف لنجدتها أي اهتمام.

توسل عبد الحليم للحارس وأقسم له أغلظ الأيمان أنه لم يفعل شيئا وأن الفتاة بادرته بالشتائم من ذاتها ودون أي مبرر.

دفعه الحارس بعيدا عنه بعنف، بينما كان ممسكا بياقته، شعر عبد الحليم بأنه يختنق وهو يسمع الحارس يهدده بأنه "سيهشم عظامه قبل أن يسلّمه للشرطة إن هو كرر ما فعله اليوم"!!

قضى ليلته تلك مؤرقا، يشعر بالخزي والعار من فعلته.

كل الشباب يتغزلون بالبنات و(يلطشونهن) بل ويتحرشون بهن، ولا يحدث لهم ما حدث لي اليوم؟!

....

عاش عبد الحليم بعدها سنوات في الجامعة، وسافر لإكمال دراسته في الخارج، لكنه لم يغازل أنثى بعد ذلك قطّ، وعندما ألحت عليه والدته بضرورة الزواج، أعطاها تفويضا كاملا بأن تختار له من تشاء من قريباتها أو سواهن.

تزوج وصار عنده صبيّان وبنتان، وما يزال محافظا على سره الأبدي، غزل آخر الليل، الذي حدث مرة ولم يتكرر أبدا.

بعد مرور عشرات السنوات ما زال عبد الحليم يتذكر تفاصيل تلك القصة بكل حرف وبكل نقطة وفاصلة، لكنه اليوم يتذكر ويضحك.. يضحك كثيرا –خاصة-عندما يحاول التودد لزوجته بعبارة غريبة لم تفهم زوجته معناها ولم تعرف ما علاقة هذه العبارة بالحب والغزل إذ يسألها متوددا ومتحرشا: ما أخبار الدوام الليلي يا أمورتي؟!

العيد والعودة

وصل سمير متأخرا قليلا، رحّب به الشباب بتحيات تقليدية، ثم بادره عدنان بسؤاله عن سبب تأخره، رد سمير وهو يمسك جهاز الريموت كونترول: لقد اتصلت بزوجتي وأولادي، لماذا لا تتفرجون على المحطة السورية؟

كان حينها قد بدل القناة: انظروا إنهم يحتفلون أيضا.

-لكن المحطة السابقة تعرض سهرة أجمل وأكثر حيوية، سهراتنا الوطنية في التلفزيون السوري تجلب الغمّ! قال مرهف.

يرد سمير: لتكن كلّها غمّا، ألسنا مغمومين في غربتنا، ألسنا بحاجة للغمّ لنتذكر كم أخطأنا حين سافرنا وتركنا نساءنا وأولادنا وراءنا.

-لم نتركهم، بل نحن سافرنا من أجلهم، من أجل مستقبلهم، أنت تعرف أن ظروف البلد لا تساعد، لقد سافرنا وتغربنا من أجلهم، قال عدنان.

-لقد اتفقنا أن نسهر معا لنخفف عن بعضنا، لا للندب والنواح، ماذا بكم يا شباب، هذا اليوم هو يوم عيد ويفترض أننا اجتمعنا لنحتفل. قال سميح الذي كان ما يزال يتابع وضع بعض الصحون والفواكه على الطاولة.

-يبدو أن اتصالك قد هيج مشاعرك يا أبا سمرة، كلنا تركنا وراءنا أهلا وأعزاء..

-أنت لم تترك وراءك أولادا صغارا، لم أحتمل يا شباب لم أحتمل صوت ابني الصغير وهو يلومني" بابا قلت لي أنك لن تتأخر، أنت كذبت علي، أنا لا أحبك".. مسح سمير عينيه كي لا يلحظ زملاؤه دمعة طفرت من عينه اليمنى.

اقترب منه مرهف ووضع يده على كتفه: بسيطة أبا سمرة، كلها عدة أشهر وتكون بينهم.

-مشتاق يا شباب مشتاق لهم، منذ وصلت هنا وأنا أحلم بأني بينهم هناك في بيتنا، كل يوم أرى نفس الحلم..

-خيرا.. اللّٰهُمَّ اجعله خيرا، احكه لنا.. ربما نستطيع تفسيره لك، فأخوك سميح مختص بقراءة الفنجان وتفسير الأحلام.

-ما هذا البرود يا عدنان؟ الرجل يتحدث بقلب محروق وأنت تتفذلك! احك يا سمير فكلنا نحلم بالوطن والعودة.. فلنر حلمك..

-في كل يوم أحلم بأني رجعت وأن أولادي الثلاثة وزوجتي يرونني من بعيد فيهرولون نحوي فاتحين أذرعهم لاحتضاني، أنا أيضا أركض بسرعة، أسمع أصوات أولادي"اشتقنا لك" و"أنا اشتقت لكم"، أفتح ذراعي لاحتضانهم وعندما أصل إليهم.. أحتضنهم، لا شيء.. يداي تحتضنان السراب، استيقظ حزينا مرعوبا أبحث عنهم في زوايا غرفتي، وأبقى صاحيا.. ريثما أستوعب القصة، إنهم بعيدون.. بعيدون جداً.

يكفكف سمير دموعه، عدنان يصب كأسا ويناوله لسمير: اشرب يا سمير، قريبا تجتمع بهم وتشفي غلّك وتطفئ أشواقك. يتناول سمير الشراب ويشكر عدنان همسا.

-نحن نقدر مشاعرك، فأنا أيضا لدي ولدان صغيران لم أرهما منذ سنة ونصف، تخيل أن يكون منتهى طموحك أن تحتضن ولدك وتعانقه؟! قال سميح.

-ألم أقل لك يا عدنان إن السهر مع المتزوجين يجلب الغم، ما بكم يا شباب، كلنا لدينا أهل، سواء كانوا زوجة أو أخوة أو آباء أو أبناء.. انظروا إلى التلفزيون، انظروا ما أجمل هذه الدبكة، وما أروع هذه الموسيقى، استمتعوا بالفرجة على التلفزيون، حاولوا أن تفرحوا قليلا. قال مرهف

عدنان: صدقني يا مرهف أن قلبي محروق أكثر من الشباب، أنت تعرف أني تركت والدتي المسنة وحيدة.. (يتوقف قليلا ثم يتابع).. أشتهي أن أسمع صوتها لكني لا أتصل بها كي لا يهيج الاتصال مشاعري ومشاعرها، استحلفتها ألف مرة ألا تبكي عندما تتصل بي، لكن لا فائدة، أحس بسخونة دمعاتها مع أول همسة على التلفون، آخ يا أمي لو تعرفين كم أنا مشتاق!!

سمير: ما هذا عمي عدنان كنت تلومنا على مشاعرنا، أراك أكثرنا شوقا ولوعة.

عدنان: ولم لا؟ أم تظن أني إنسان مجرّد من المشاعر؟ فقط كنت أحاول مواساتكم والتخفيف عنكم لأني أقاسمكم الهموم والمشاعر والأحاسيس، لقد خفت أن أقضي عيدي الأول وحيدا مع ذكريات الوطن وأيامه، لذلك دعوتكم، خفت أن يقتلني التذكّر والتأسّي.

مرهف: قبلنا دعوتك وجئنا ليتحول الغم الفردي إلى مجزرة كآبة جماعية!

سمير: لقد بكيت رغما عني، تخيلوا ابني سومر، عمره سنتان، كان ينام في حضني ويغفو على ذراعي، أمه أخبرتني أنه يستيقظ ليلا، ويبحث عني وهو نائم، وعندما لا يجدني يبكي ويصرخ: أريد بابا!!

سميح: ألا ترون معي يا شباب أننا نتحدث مثل سجناء أو معتقلين سياسيين؟

عدنان: ما قصدك؟

سميح: كنت أظن أني الوحيد الذي يعاني، وكنت أستحي من البوح بمشاعري كي لا تسخروا مني وتقولوا عني إنني عاطفي ومتعلق بزوجتي!

سمير: صدقت، أتعرف منذ الأسبوع الأول لوصولي إلى هذا البلد قررت العودة إلى سورية، لكني خفت من تعليقات الناس، وقولهم فاشل وقليل التحمل، وأنه متعلق بزوجته مثل تعلق الطفل بأمه.. ومثل هذا الكلام.

سميح: اقتراحي لكم أيها الشباب، أننا ما دمنا جميعنا نعاني ونكابد من الفراق والبعد، فما الذي يمنعنا من العودة، بلادنا وأهلونا بانتظارنا.

سمير: صدقت.. والله كنت أفكر بهذا، لماذا لا نرجع وينتهي هذا العناء؟

مرهف: طولوا بالكم يا شباب، نحن مرتبطون بعقود عمل وعلينا التزامات.

عدنان: أنا مع الشباب، أي التزامات وأي عقود أولى من التزامنا بأولادنا أو أمهاتنا، إذا تخلينا عن عقودنا سنخسر بعض المكتسبات المالية؟! طز بالمال!!

سميح: أصبت يا عدنان ما أهمية المال إذا رجعنا غدا ووجدنا أحد الذين نود لقاءهم قد فارق الحياة؟

سمير: بالله عليك لا تغمنا أكثر مما نحن فيه، ولنقرر بمنتهى الهدوء ودون المزيد من الشحن العاطفي.. من يود العودة ومن يود البقاء؟

يتبادل الشباب النظرات، بعيون محتقنة بالدمع والأمل: موافقون..

سمير: إذن هيا بنا نعد العدة للعودة.

مرهف: الآن؟ والاحتفال؟

عدنان: سنحتفل هناك، مع ست الحبايب..

سميح: الآن الوقت متأخر، والقضية تحتاج لبعض الإجراءات، أوراق وحجز مقاعد السفر وخلافه.

مرهف: إذاً لنحتفل بقرار العودة.. افرحوا يا شباب، فزمن الغربة ولى، والشهور التي تفصلنا عن أحضان الأحبة صارت ساعات معدودة!

مرهف: إيه، غدا أكون هناك معك يا لبنى، كم ستكون مفاجأتها كبيرة، قلت لها في اتصال اليوم أني لا أستطيع القدوم قبل ستة أشهر بأقل تقدير، بصحتكم شباب!

الجميع: بصحتك!

سمير: أبشر يا سومر غدا تتوسد ذراع أبيك، آه كم سأضمك إلى صدري، وأشتم رائحتك، اشتقت لك يا صغيرون، اشتقت للثغتك، اشتقت لعبارات المحبة، يا الله كم ظلمت نفسي عندما قررت الابتعاد عنك!

عدنان: صدقوني يا شباب هذه أسعد لحظة في حياتي، أشعر أن حملا ثقيلا قد أزيح عن ظهري، فعلا لماذا سافرت؟ بلدنا مليئة بالخير، وآلاف الناس تتدبر أمورها دون سفر، لعن الله من أقنعني بهذه الفكرة اللعينة!

سميح: أن يسافر العازب فهذه مشكلة بسيطة، أما المتزوج مثلنا، فيجب ألا يفكر بالسفر أبدا، غلطة ولن تتكرر.

سمير: فعلا غلطة ولن تتكرر، لا شيء في الدنيا يساوي لمة الأهل وراحة البال، لقد تعبت وأنا أرى الكوابيس، بصحتكم يا شباب.. كانت فكرتك عبقرية يا سميح، هات بوسة على هذه الفكرة العظيمة!

يتبادل الشباب القبلات والتهاني، ثم يقبلون على الفواكه وألوان الطعام ويتوازعونها فيما بينهم، عيونهم ترنو إلى التلفاز، وعلى أنغام موسيقى الدبكة القادمة من التلفاز، تتشابك الأيدي، وتتناسق حركات الأرجل والأجسام، ويدورون في حلقة ضيقة، ويزداد حماسهم رويدا رويدا، وتعلو ضحكاتهم وزغاريدهم على أصوات خبطات أقدامهم القوية..

بعد دورات عدة، يغادر عدنان الحلقة ويتناول كأسا: أتخيل نفسي أدق الباب على أمي غدا أو بعد غد، تفتح الباب وتأخذني بحضنها الدافئ، كم

ستفرح!! لن تسعها الدنيا من الفرحة! آه سأروي لها كل ما حدث معي من يوم وصولي إلى ساعة عودتي..

صمت عدنان فجأة وتغيرت سحنته، خفتت أصوات الدبكة أكثر وأكثر، وتوقفوا عن الدوران، ثم تفرقوا إلى مقاعدهم.

مرهف: ما بك عدنان كلها ساعات، ساعات فقط يا رجل وتكون معها، يعني صبرت كل هذه المدة، والآن.. خذ هذه السيجارة من يدي ودخن.. دخن عليها تنجلي.. يضحك مرهف بسعادة غامرة.

عدنان: لقد وعدتها يا مرهف، أن أول شيء سأفعله عندما أعود أن أطلب منها أن تخطب لي، يكاد قلب أمي ينفطر لرؤية أطفالي!

سميح: تزوج وأرح قلبها يا أخي، أين المشكلة؟

عدنان: المال.. المال يا صاحبي، منذ وصولي حتى الآن لم أجمع ما يكفيني لحمل بعض الهدايا العادية.. فما بالك بالخطبة والزواج.

سميح: لعن الله المال، كل شيء يحتاج للمال.

سمير: بالطبع، وهل تغربنا إلا من أجل المال، لقد ذكرتني.. فأنا عاهدت نفسي ألا أرجع إلا وبدل الخدمة الإلزامية في جيبي.

مرهف: حتى الآن لم تؤد الخدمة؟

سمير: ولن أؤديها، لن أحكم على نفسي بتجميد حياتي عامين كاملين، أكون فيهما مسلوب الحرية والإرادة، أتقاضى مصروفي ومصروف أولادي من والدي أو من محسن آخر!

سميح: وأنا لا أستطيع أن أرجع خالي الوفاض، لن أرجع فقيرا ليذلني قاسم، صاحب السوبرماركت الجشع، كان مهربا وضيعا.. كان يقف لي كل يوم على مدخل الحارة ويصيح بصوت يسمعه الجميع: "شو أستاذ ما قبضتوا؟ شو أستاذ ما آن الأوان لتحاسبنا؟"

عدنان: إذاً هناك من أذله الفقر في الوطن أكثر مما أذلته الغربة، حسنا الآن عرفت أني لست الوحيد.

وقف سمير.. تمشى في الغرفة، نظر في وجوه الشباب، ثم وقف ينظر من النافذة متأملا هدوء الليل في الخارج، ثم قال بصوت كسير: اعذروني يا شباب لن أرجع معكم، اعذروني، أنا آسف.. لدي ظروفي..

قام عدنان ومشى إليه، وضع يده على كتفه وقال: لا تهتم أنا سأبقى معك.. لأسرّي عنك، فأنا أيضا مضطر للبقاء!

ضحك مرهف بصوت عال وقال وهو يتمطى على كرسيه: لا أظن أن سميحا سيذهب بمفرده!

رسم سميح ابتسامة كبيرة على وجهه: أفضّل الموت على أن أعود للعيش في الظروف التي تركتها ورائي، لقد وصلت إلى مرحلة كان عقد العمل بالنسبة لي هو حبل النجاة، ربّما لو تأخر سفري لانتحرت أو جننت!!

.. قبيل أن تنفض سهرتهم مع خيوط الفجر الأولى سألهم عدنان: يقولون أن الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن! ولكن ماذا يقولون عمن يجمع الغربة والفقر؟!

تاهت الإجابة على الوجوه، نظروا بتواطؤ عفوي إلى الساعات في أيديهم، تبادلوا التهاني بمناسبة العيد مرة أخرى، ثم انطلق كل منهم إلى عمله.

****

العشرة الطيبة

جاء دوري في طابور المنتظرين، تناولت راتبي من المحاسب. بحكم العادة وحرصا على دقة عمل المحاسب، قمت بإعادة عد الوريقات النقدية، كان الراتب كاملا من الناحية العددية، تسع وسبعون وخمسمئة وألف ليرة، وضعت القطع المعدنية في جيبي وأنا أغادر مكتب المحاسب، ثم اكتشفت وأنا أعيد توزيع القطع النقدية في جيوبي، أن إحدى القطع الورقية من فئة الليرات العشرة، مهترئة تماما، رجعت غاضبا وزمجرت في وجه المحاسب، ودفعت الورقة النقدية في وجهه، المحاسب لم يرتكس لهجومي ولا لزمجرتي وزئيري، وقال هكذا وصلته الكتلة النقدية، وهو لا يستطيع إعادتها، ولا يمكن لأحد من زملائي أن يقبل أن يأخذها بعد كل هذه (الزيطة والزنبليطة) التي اصطنعتها بانفعالي الشديد، حاولت مرة ثانية وثالثة، خفضت صوتي وتكلمت بهدوء وببعض التوسل.. لا فائدة.. وجاء الصياح هذه المرة من طابور الزملاء المنتظرين أمام طاولة المحاسب:

-أرجوك.. خذ عشرتك وامض يا أخي.. نحن أيضا نريد أن نقبض!

-اشكر الله أن الراتب جاء في موعده ولم يتأخر كالعادة.

-أعطها لأي كازية، أصحاب الكازيات يقبلون أي قطعة نقدية..

تركت المحاسب غارقا في معركة جديدة مع زميلنا ظافر، يسأله عن سبب الحسم في مرتبه.. المحاسب وبقية المنتظرين يحاولون إقناع ظافر بمراجعة المدير، وشرحوا لي وله: وقت المحاسب مخصص لتسليم النقود مقابل التوقيع بالقبض والقبول من قبل الموظف، ما عدا ذلك، ليس شغل المحاسب، وليس من واجبنا -بقية الرفاق-تحمل أعباء جدلكم العقيم!!

ما أبسط أي مشكلة لا تعنينا، وما أهون تقمّص دور الناصح، حين تكون العقدة في منشار غيرنا!!

خرجت وأنا أقل توترا، فحكايتي أهون من حكاية زميلي ظافر الذي استلم راتبه ناقصا خمسا وستين ليرة، ولم يعطَ الفرصة، ليعترض ولو من باب (فشة الخلق)!

تبعني ظافر وهو يوزع شتائمه على المدير والمحاسب وعلى الرواتب ولم ينس حظّه الملعون من التقريع والشتيمة.

تابعنا سيرنا معا، نسكن –كلانا-في نهر عيشة، وطريقنا واحدة، وقفنا على الطريق العام بانتظار (حافلة النقل)، بعد انتظار قليل وصلت الحافلة وركبناها معا، تعودنا سابقا أن يدفع كل موظف عن حاله، فرواتبنا لا تتحمل أي شهامة عروبية.. لكني أخرجت ورقة الليرات العشر وغمزت ظافر، سأدفع عني وعنك، تصنع محاولة للرفض، وانهمك في محاولة إخراج ورقة نقدية من جيبه ليدفع، لكن محاولته لم تحتج لأكثر من ضغطة

صغيرة من يدي على يده ليتوقف عن المحاولة ويستسلم شاكرا لي مبادرة كرمي الطارئة!

دفعت الورقة النقدية للسائق وقلت له: اثنان، وبمجرد أن أمسك الورقة النقدية شعر أن بها عيبا، فالتفت نحو يمناه الممسكة بالورقة النقدية والمقود معا، ثم حملق ثانية مدققا أكثر، حتى نسي مراقبة الطريق أمامه، ولم يصْحُ من مفاجأته بالورقة إلا على مفاجأة زمور عالي الضوضاء من شاحنة كبيرة، كاد أن يدخل في مقدمتها لولا رحمة من الله.. عدّل من خط سيره في الثواني الأخيرة ونجونا جميعا بفضل الله.. وما إن تجاوز مرحلة الخطر العابرة، حتى رمى الورقة النقدية في وجهي وقال: هذه خربانة، أعطني غيرها..

-ليس معي إلاها.. اليوم آخر شهر ولم نقبض بعد!

-اسأل صديقك الذي دفعت عنه، علّه يدفع عنك وعنه.

أسرع ظافر يفتش في جيوبه عن عشرة يدفعها للسائق، فلكزته بمرفقي في بطنه، وقلت للسائق صياحا: زميلي مفلس وليس في جيبه قرش واحد، خذ هذه العشرة واشكر الله على هذه النعمة.

لكن السائق رفض أخذها، وقال: خلّها معك، لا أريد توسيخ نقودي بها..

وصلنا لبوابة الميدان، نزلنا من السرفيس وعلينا أن نتابع مشوار عودتنا لبيوتنا سيرا على الأقدام إلى حيّنا في نهر عيشة، وهنا خطرت في بالي فكرة..

-ظافر.. ما رأيك بزجاجة من العصير المنعش، في هذا الجو اللاهب؟

بدا ظافر مترددا.. وحسما لتردده، قلت له "على حسابي"، سبقني ظافر.. دخل المحل، فتح زجاجة لي، ناولني إياها ثم فتح زجاجة له، شربنا الزجاجتين في المحل، نستظل من الشمس الحارقة ونلتقط أنفاسنا، فبيوتنا بعيدة عن الشارع العام، ونحتاج لمزيد من السير تحت الشمس لنصلها.. شربنا العصير البارد وانتعشنا قليلا، مددت يدي بالعشرة وناولتها للبائع، لم يتردد البائع نهائيا بإعادتها لي: خربانة، أعطني غيرها.. وحسما لتدخل ظافر، قلت بصيغة الجمع: ليس في حوزتنا إلا هذه العشرة.

-خذها.. سامحكما الله.

راقت لنا التجربة، فسألت ظافر: ما رأيك لو نأكل بعض الحلو من المحل المقابل؟

فهم ظافر الخطة، فرحب بها بابتسامة عريضة وسبقني لمحل الحلويات، وأكل كل منا (شعيبية) محشوة بالجوز، بنهم وسعادة.. و.. سامحَنا صاحب محل الحلويات بثمن الشعيبيات لوجه الله بعد أن عاين وجهي العشرة التي دفعتها له!

قال لي ظافر: بصراحة أمرّ كل يوم من أمام محل الآيس كريم وأشتهي تذوق طعم ألوانه الزاهية، وإذا تجرأتُ واشتريته فإني أحمله لأولادي، قلبي لا يطاوعني أن أشتري الآيس كريم لنفسي على حساب أولادي.. طبعا أنا لمّاح وذكي.. دخلنا محل الآيس كريم واشترينا قطعتين من أفضل الأنواع، حاولنا أن ندفع ثمنهما بالـ (عشر ليرات)، لكن صاحب محل الآيس كريم، دسّ

العشرة التي أعطيته إياها في جيبي وهو يحلف بالله أنه سامحنا بثمن الآيس كريم "هذه ضيافة من المحل لكما، أهلا وسهلا بكما"، خرجنا من المحل ونحن نلعق الآيس كريم بتلذذ لم يسبق أن شعرنا به أبدا!!

في اليوم التالي استثمرنا عشرتنا أيّما استثمار، واشترينا أشياء كثيرة طالما حلمنا بتجربتها، بعض الأشياء لم أجربها أنا-وكذلك قال ظافر-منذ توقفنا عن أخذ مصروفنا من آبائنا.. كنا نكرم أنفسنا عندما كنا نقبض من والدينا، أما اليوم -من تعبنا ومن رواتبنا-فالقرش غال علينا، وليس للرغبات الصغيرة حظ فيه، ماتت رغباتنا الطائشة بموت الرعاية الأبوية!

ضحكنا كثيرا أنا وظافر، ونحن ننتقل من محل لمحل في سوق الحميدية نشتري الأطايب اللذيذة، التي لا يزيد سعر مفردها عن خمس ليرات!

حتى سيارات الأجرة، كنا نركبها، وعندما يشير العداد إلى تسع ليرات نطلب من السائق أن يقف، نعطيه العشرة فيقذفها في وجهنا معيدا إياها لنا.. ننتظر سيارة أخرى و.. هكذا..

مشينا -أنا وظافر-نقلب رواسب أحلامنا الطفولية.. رأينا من بعيد أضواء مدينة الملاهي، استيقظ الطفل في داخل كل منا، ولم لا، سنمرح كالأطفال مرة جديدة دون أن نفكر من سيدفع الحساب، وكم سندفع ثمن ابتسامتنا وفرحتنا، منذ زمن توقفنا عن التمني، فلكل أمنية ثمن، والثمن زهيد غالبا، لكنه علينا عزيز دائما!! هرولنا نحو المدينة كالأطفال، دخلنا وركبنا المصاعد الدوارة، ثم ركبنا الخيول الخشبية، وبعدها ركبنا عربات القطار..

جربنا معظم الألعاب، وبعد نهاية كل لعبة كنا نرمي عشرتنا لمسؤول القسم فيعيدها لنا.. ونعيد نحن تجربتنا مع لعبة جديدة!!

أخيرا جربنا لعبة المراجيح الدوارة، وعندما انتهينا منها، رمينا عشرتنا للمسؤول عنها، أخذ العشرة تأملها طويلا، ثم نظر إلينا بابتسامة واسعة: لا يوجد معكما قرش واحد غيرها؟

أجبناه معا وبثقة: تماما!

قال: لذلك سأقبلها منكما!

انتهت رحلة العشرة، وانقطع حبل المرح!! أسبوع كامل من الجخ والرخ والفرح والمرح، وكله على حساب هذه العشرة، هذا الحساب المفتوح.. أوصدت أبوابه الآن!!

-سبحان الله، عشرة خربانة مهترئة، ليس لها قيمة استطاعت أن تحقق لي كل أحلامي الصغيرة، وأدخلت على قلبي وقلبك يا ظافر من الفرح والسعادة ما عجزت عنه عشرات الآلاف من الليرات!

-تلك هي الحياة، سلسلة لا تنقطع من الغرائب والمفاجآت.

-لكن هذه ورقة بقيمة نقدية محدودة، قيمتها النظرية العليا عشر ليرات، وقيمتها الحقيقية صفر، إنها مهترئة، بالية، أرقامها ممحية، أطرافها ممزقة، رسومها حائلة اللون والرموز!!

-رغم كل القوانين العلمية استطاعت عشرتك أن تحارب كل نواميس الطبيعة وتهزمها!

كنا قد أصبحنا على بعد مئة متر من مدينة الملاهي، التفتّ للوراء، تذكرت-والحسرة تأكلني-عشرتي التي بقيت هناك: ""لماذا لا أذهب وأستعيدها، سأدفع للرجل عشرة حقيقية جديدة وأستعيد عشرتي، سأستعيد عشرتي لأستعيد مرحي"".. فرحت بالفكرة وشاركني ظافر فرحي، عادت دماء الأطفال تجري في عروقنا، فجرينا مسرعين..

على مدخل حديقة الملاهي لمحت الرجل المسؤول عن المراجيح الدوارة وهو يخترق حشدا من الناس تجمهروا قرب الباب، انخرطت وظافر ورائي ضمن الحشد، رأيت الرجل يتناول صحنا من الفول من بائع الفول، وينقده ورقة الليرات العشر، احتج صاحب عربة الفول: هذه خربانة!! أريد منك ليرتين فقط، رد عليه مسؤول المراجيح الدوارة: ليس عندي غيرها.. خذها وأعد الباقي.

-لا يا سيدي، خسارة ليرتين أرحم من خسارة عشر!!

ورمى القطعة الورقية في وجه أبي المراجيح الدوارة!!

أحطت أنا وظافر بأبي المراجيح مثل ملاكين حارسين، حتى تجاوزنا الناس والزحام.. أخرجت من جيبي عشر ليرات جديدة ودفعتها نحوه: خذ هذه وأعد لي عشرتي القديمة.

-يا أخي أنت حاسبتني وانتهينا، انصرف عني ودعني أتناول طعامي!

-ضمري يؤنبني لأنني أعطيتك عشرة مضروبة!!

تجازونا الرجل متجاهلا توسلاتنا وضاع وسط الزحام.. ضميري أخذ يؤنبني فعلا؛ لا أدري كيف قبلت أن أحصل على أشياء وخدمات دون أن أدفع ثمنها!! وكأنّ ظافرا قرأ أفكاري: لا تحمّل الموضوع أكثر مما يحتمل، أكبر جرائمنا سقفها عشر ليرات!

ربما هذا ما يحزنني أكثر يا صديقي، فنحن -في الخير وفي الشر، في الأخذ وفي العطاء-ليس لدينا قدرة على تجاوز هذا السقف: عشر ليرات!!!

****

أبو الديموقراطية

قبل أربعين عاما، عاد الوالد من عمله وعلامات السعادة على وجهه، ولم يتجه يومها لطاولة الطعام كعادته، بل دخل غرفة العائلة، ونادى على والدتي وعلينا -نحن أولاده-أن تعالوا إليّ..

اجتمعنا على عجل في مجلس العائلة، بدت والدتي قلقة، واستعجلت والدي ليطمئنها عن سبب الاجتماع الطارئ لمجلس العائلة، فالعائلات لا تجتمع بشكل طارئ إلا بوجود خبر سيء أو حدث محزن، كما قالت والدتي. ابتسم والدي بسعادة وهو يخرج من جيبه مبلغا من المال، ثم قال: هذه ألف ليرة، رصيدنا العائلي، وهي تشتري لنا إما تلفزيونا، أو غسالة، ذهبت اليوم إلى السوق وسألت عن أسعارهما، كنت أحلم بتحضير مفاجأة سارة لكم بإحضارهما كليهما، لكني تفاجأت بغلاء الأسعار، والألف ليرة لا تكفي إلا لشراء أحدهما، فكّرت مطولا في السوق ولم أعرف أيهما أهم وأولى بالشراء..

قاطعتُ والدي، وفعل أخوتي مثلي، فعَلَتْ أصواتُنا دون اتفاق مسبق ونحن نصيح: تلفزيون.. تلفزيون.. تلفزيون..

ضحك والدي، لكن عبوس والدتي وصياحها الغاضب أوقف صياحنا ومحا البسمة عن محيّا والدي: اخرسوا أيها الأولاد! وأنت فرحان؟! علام فرحك؟

ألا تشعر بي وبتعبي، انظر إلى يديّ، لقد أكلتهما مواد التنظيف، انظر إلى التجاعيد فيهما من كثرة الدعك والفرك بثيابك وثياب أولادك..

-يا زوجتي الغالية، أعرف أنك تحتاجين للغسالة، وقد طالبتني بها عدة مرات، ووعدتك أني سأشتريها..

-وما الذي منعك من شرائها اليوم؟! تريد أن تشتري التلفزيون! أعرف أنك ترغب بإحضار جهاز التلفزيون لتتفرج فيه على النساء، لأنني لست امرأة، أنا هنا مجرد خدّامة تغسل، وتطبخ و..

-يبدو أنك غاضبة جداً، رغم أنه يجب ألا تكوني كذلك، فأنت تعرفين أني عودتكم على الديموقراطية، ولا أقطع أمرا، إلا بعد التشاور والاتفاق معكم، كالعادة سنطرح الموضوع على التصويت، والجهاز الذي يحصل على الأكثرية، سواء الغسالة أو التلفزيون، سأشتريه أولا، وليكن بعلم الجميع أننا سنشتري الجهازين، لكن أحدهما سيكون غداً، والآخر قد يتأخر عدة شهور، ريثما أنتهي من تسديد هذه السلفة.

-إذا كنت مصرّا على التصويت، حرصاً على الأصول الديموقراطية، فلن أعترض، لكن أرجو أن تسمح لي باستخدام حق النقض-الفيتو-لتأجيل التصويت على الموضوع حتى عصر الغد، ربما يهدي الله أولادك إلى رشدهم ويعلمون أن الغسالة أهم من التلفزيون للأسرة.

ارتفعت الهمهمات بيننا وكثر اللغط، فرفع والدي يده، وعقّبها برفع صوته: انتهى النقاش اليوم نزولا عند طلب والدتكم، ترفع الجلسة لعصر الغد!

كان كلام الوالد حاسما، بادلته الوالدة ابتسامة الرضا، بينما تحلّقنا نحن حول مائدة الطعام نأكل بنهم، وفي داخلنا شعور بقرب حسم معركة التلفزيون لصالحنا، فقد عوّدنا الوالد على احترام خياراتنا الجماعية، حتى ولو كانت مخالفة لرغبته.

دخل أبي غرفته لأخذ قيلولة ما بعد الغداء، فيما دخلت والدتي المطبخ، غابت قليلا، ثم عادت إلينا وهي تحمل صينية عليها كاسات، وإبريق ينفث بخاراً برائحة الشاي، تلك الرائحة التي لم يخطئها أنفي -قبل بلوغي العشرين من العمر-أبداً.

نادتنا الوالدة همسا، صبّت الشاي، ودَعَتنا لمشاركتها حفل الشاي، في حركة غير مألوفة، فالشاي كان مشروب العائلة على الفطور، ولا يسمح للأولاد بتناوله مرة ثانية في اليوم، الحدث كان شبه استثنائي، وودّها كان عاديا لولا بعض المبالغة في ملاطفتنا جماعيا، بدأت حديثها عن الأم ومكانة الأم في الدين والدنيا وفي أحاديث الأنبياء وفي أقوال الحكماء، لدرجة أني تفاجأت بثقافة أمّي الواسعة عن الأم، ثم عطفتْ بالحديث عن تعبها وسهرها وشقائها الدائم في سبيل سعادتنا وراحتنا، وعرّجتْ على بعض الأمثلة عن تعبها وشقائها في المنزل، وركّزت على موضوع الغسيل، عددنا الكبير وأكوام اللباس الوسخ، وسوء نوعية المنظفات، ثم عرضت علينا -وهي تبسط كلتا يديها-الشقوق في كفيها، والأكزيما المستوطنة بين أصابعها بفعل عوامل التنظيف، وبعد إسهاب مطوّل في شرح فوائد الغسالة وأهميتها لنظافة

العائلة، حوّلت عجلة الحديث باتجاه التلفزيون، تكلمت عنه بتقزّز، وتحدّثت عن برامجه المملّة والمكرّرة، وعن ألوانه الممسوخة، فكل شيء فيه إمّا أبيض وإمّا أسود، وقالت إنّه يسبب ضعف البصر وعمى الألوان بسبب الأشعة (الصينية!) الخطيرة التي تخرج منه..

استيقظ أبي قبل أن تنهي أمي محاضرتها، فعاجلتْ إلى بترها على وجه السرعة، مذكرة إيّانا بصوت عال بضرورة الاهتمام بدروسنا، كي يبقى "البابا" فخورا وسعيدا بنا!

بطيئا جاء عصر اليوم التالي، دخل والدي البيتَ، فوجدنا في حالة اجتماع مسبق، ننتظر قراره ببدء التصويت، وفعلا لم يتأخر بذلك:

الذي يريد شراء الغسّالة ليرفع يده.. أمممم، واحد فقط، الذي يؤيد شراء التلفزيون ليرفع يده، أمممم.. سبعة.. القرار العائلي رقم سبعة عشر لهذا العام: شراء تلفزيون، إلى الطعام.

انطلقنا إلى الطعام والسعادة تملأ عيوننا وقلوبنا، كانت ألذّ وجبة طعام أكلتها في حياتي، رغم أني لم أشعر بطعمها، ولا أتذكر ماهيتها!

على مائدة الطعام، لاحظتُ علامات الخيبة على وجه أمي، ولم تلبث أن اغرورقت عيناها بالدموع، رغم أنها وبكل روح رياضية، أعلنت قبولها بنتائج الاقتراع احتراما للديموقراطية ونزولا عند رغبة الأكثرية..

في المساء نادتني والدتي للمطبخ، وناولتني شطيرة من المربى والزبدة: أنظر كم أحبك، لقد خصصتك بهذه الشطيرة لأنك أحب أخوتك إلى قلبي،

تحدثت أمي بمواضيع عامة مقتضبة ثم سألتني مباشرة: ألم تكن أنت وأخوتك مقتنعين بأهمية الغسالة، ووعدتموني بالتصويت لصالحها؟

- أمي نحن أخلفنا وعدنا لأنك خدعتنا، التلفزيون منبر ثقافي وحضاري، كما قال أخي عدنان، والتلفزيون يجلب العالم كله لعندنا، ونستطيع أن نشاهد كل المطربات والمطربين، ونتابع أخبار ثورات الشعوب المقهورة في فيتنام والكونغو، و.. وكل العالم.. وسنشاهد المعارك والجنود وكأنهم في بيتنا.. أما الغسالة.. الغسالة تؤذي الثياب، وتُبهِت ألوانها وتكسّر الأزرار!

كانت أمي تستمع إليّ والذهول يسيطر على كل تفاصيل وجهها، فوجدْتها فرصتي لأستذكر عبارات كبيرة المعنى، جميلة الصياغة، قالها أخي عدنان ولم أستوعبها: التلفزيون هو نافذتنا الثقافية على العالم، والثقافة هي الحاجة العليا للشعوب.. و.. و.. حاولت أن أتذكر عبارات أخرى، تحوي شيئا ما له علاقة بالمؤامرة والماسونية والرأسمالية وصراع الأجيال.. لكني نسيت كيفية ترتيب الكلمات وربط الجُمل.. فتشاغلت بقضم آخر لقمة من شطيرتي، ثم سألت أمي إن كان بإمكاني شرب كأس من الشاي، لم ترد، بل تركتني ومضت حزينة كئيبة.

لم ننم تلك الليلة أنا وإخوتي ونحن نحلم بالتلفزيون، ونحن نتخيل شكله وآلية عمله، فلم نكن قد رأينا تلفزيونا من قبل، بنينا تخيلاتنا الجامحة

على ما حكاه لنا عدنان-أخانا الأكبر-الذي شاهد التلفزيون عدة مرات، عندما كان يذهب للمدينة القريبة لحضور مباريات كرة القدم.

اشترى والدي التلفزيون في مساء اليوم التالي، وقضينا تلك الليلة في نصب الهوائي وتوليف المحطة التلفزيونية اليتيمة!

بعدها بعدة أشهر اشترى والدي الغسالة، بعد جدال طويل مع أخي عدنان الذي اعترض حينها، واعتبر أن الغسّالة مظهر بورجوازي حقير، لا يليق بأسرتنا المناضلة ضد البورجوازية والرأسمالية أن تتشبه بخصومها التاريخيين!

حاول عدنان أن يقنعنا بشراء بندقية صيد، لأن الرماية من علامات القوة والفروسية والشهامة، عرض الأمر علينا، ومالت أهواؤنا معه، وتمايلت أحلامنا على نغمات تصويره لرحلات الصيد في البراري والسهول.

بذل أبي وقتها جهده لإحالة الأمر للاقتراع الديموقراطي، لكن والدتي اعترضت على ديموقراطية "الأولاد" التي جعلت منا أضحوكة لأهل القرية، وقالت بحدّة: إنّ الناس أصبحوا يتندرون بتجربتنا الديموقراطية كلما اختلفوا في موضوع، وهم يقولون بسخرية لماذا لا نطرح القضية على أولاد أبي عدنان الديموقراطي، حتى أن الجميع في القرية يردد لقبنا الجديد علانية: بيت (أبو الديموقراطية)!

وهكذا.. اشترت أمي الغسالة في أول انتهاك سافر للنهج الديموقراطي في بيتنا!

رغم حجم الانتكاسة الديموقراطية التي اعترضتنا، إلا أن أخي عدنان بقي مصرّا على إغناء تجربتنا الديموقراطية وترسيخها، وبعد فترة وجيزة من شراء الغسالة بقرار تعسفي واستبدادي منفرد من والدتي، قرر أخي عدنان الزواج من أرملة تكبره بعدة سنوات، وأقنعنا نحن أخوته، بأن زواجه منها، هو قمة النضال وذروة سنام التضحية والتفاني، لأنه سيتزوج من امرأة مكافحة، تشقى لتربية أطفالها على النهج الاشتراكي القويم، فهي رفيقة النضال وشريكتنا في الفكر، وعلينا أن ننقذها من الوقوع في براثن الاستغلال المادي والعاطفي.

تعاطفنا مع عدنان واقتنعنا بطروحاته التي لم نفهم منها شيئا، وخاصة عندما ألمح عدنان إلى أن أي واحد في بيتنا معرض لمواجهة موقف مشابه، ولم تنفع اعتراضات والدي ووالدتي، فقد عرض عدنان الموضوع على التصويت في جو مثالي من الديموقراطية، وفاز عدنان بغالبية الأصوات، وجاءت زوجته وأولادها ليقاسمونا البيت، والمأكل والمشرب، فعدنان كان ما يزال طالبا يعيد تقديم الثانوية عاما إثر عام.

تحوّل البيت بعدها لزنزانة مفتوحة الأبواب والنوافذ، احتدمت الخلافات بين أخي عدنان وزوجته لاحقا، وقرّر تطليقها، لكن زوجته أصرّت على استخدام تقاليدنا في الديموقراطية، فهي الآن عضو جوهري في العائلة الديموقراطية، وصاحت في وجهه: ألستم أنتم بيت (أبو الديموقراطية)؟

حينها صاح بها عدنان: اذهبي أنت والديموقراطية.. طالق لك، وثلاث طوالق لها!

طلّق أخي عدنان زوجته، فيما طلق والدي الديموقراطية في نفس الليلة!!

خرجت الديموقراطية من بيتنا، ولا أذكر -لا أنا ولا أخوتي-أننا صادفنا الديموقراطية بعد تلك الليلة أبدا!!

****

المطرقة الذهبية

اشتهرت الغابة القريبة على أنها غطاء أخضر يخفي تحته مدينة أثرية كبيرة، إذ طالما تداول أهل المنطقة حكايات عن لقى أثرية وجدها بعض الرعاة، قبل أن يتحول الأمر لبحث وتنقيب حقيقي عن الآثار الدفينة هنا، وعندما انتشر أمر الحفريات على نطاق واسع، وضعت الحكومة مراقبين جوالين على مدى ساعات النهار، فلجأ المنقبون لليالي المقمرة، فتبعهم المراقبون الذين تطاولت ساعات عملهم لتشمل آناء الليل وأطراف النهار.

نُظّمت ضبوط بحق البعض، ودخل السجن آخرون، ثم توقفت عمليات التنقيب تماما، بعد أن وصلت العقوبات لمستوى شديد بحق من يُقبض عليه وهو يحفر ضمن الغابة وحرمها، حتى أن بعض الفلاحين تركوا العمل في أراضيهم المجاورة للغابة خوفا من اتهامهم بالتنقيب عن الآثار!

ورغم أن الرقابة خفت كثيرا في السنوات العشر الأخيرة، إنما بقي الرعب الرقيب الأشد أثرا في النفوس! وقد أتيت بكم اليوم لأطلعكم على أمر هام.. ترك كنان جذع الشجرة الذي كان يتكئ عليه وهو يشرح لرفيقيه رامي ومؤيد حكاية المدينة المدفونة تحت الغابة الكثيفة، سار قليلا للأمام، وأشار بيده نحو صخرة كبيرة: منذ أيام الطفولة كنت أحضر في فصل الربيع مع أخوتي وأبناء الجيران في رحلات مسائية جميلة ونسهر هنا، وكان

أحدنا إذا رغب بقضاء حاجته، يذهب وراء تلك الصخرة الكبيرة، أما أنا فقد كنت أخاف جداً من الذهاب هناك.. تعالوا معي لأشرح لكما.. مشى كنان وتبعه رفيقاه، أشار لفتحة في جوف الصخرة: كان يتراءى لي أشياء تتحرك داخل الفتحة، لذا كنت أخاف مما يختبئ داخلها، منذ يومين كنت هنا ولاحظت أن الفتحة أصبحت أكبر ويمكن رؤية ما في داخلها بوضوح.

اقترب الشباب من الفتحة وبعد مناورات بسيطة بأيديهم وببعض الأغصان المتكسرة حول الفتحة، انهارت أطرافها، واتسعت الفتحة بشكل كبير، وتكشف لهم مدخل واسع، تأملوه بوجل وتردد، تبادلوا نظرات صامتة، ثم بدأت ملامح سعيدة ترتسم على وجوههم../ نحن مقبلون على اكتشاف عظيم، قد يغير حياتنا للأبد، وقد اخترتكم لتكونوا شركائي في هذا الكنز العظيم/ قال كنان.

نظروا حولهم، لم يروا أحدا، أزالوا بعض الأحجار، وظهر أمامهم دهليز كبير وواسع!

-لا بد أن عوامل الحت والسيول الأخيرة قد جرفت الطبقات السميكة التي سترت هذا المكان لمئات السنين/ رامي

-فعلا.. كانت الأمطار غزيرة جداً هذا العام، حتى أن السيول جرفت بعض الأشجار المعمرة../ كنان

-إنه الحظ.. حظنا يقودنا للكنز والثراء! مؤيد

تسللوا مبهورين بكل ما يحدث لهم وحولهم، يبدو أنهم دخلوا مدينة حقيقية، قد يكون المكان أصغر من مدينة، لكنه مكان واسع، فهم تحت الأرض، يبدو المكان على شكل مصنع قديم، معدات معدنية ضخمة، أصبحت الرؤية عندهم أفضل؛ إنها مجموعة من الأعمدة المعدنية الموزعة بشكل دائري، بقطر يزيد على أربعة أمتار، وفي المركز يوجد عمود قصير نسبيا تتصالب معه كتلة معدنية كبيرة الحجم في أعلاه..

-هذه الأعمدة حملت السقف وجعلت ما تحته محميا من الردم.

علق مؤيد ثم رد كنان ودخل رامي معهم في حوار طويل عن ماهية المكان وطبيعته الوظيفية والتاريخية، ثم يقطع كنان حوارهم باستخفاف: ما أهمية كل هذا وماذا يعنيني إن كان قديما أو حديثا؟ يجب أن نسأل ما فائدته لنا وما القيمة التي يمكن أن نجنيها من هذا الصرح الغريب؟

-الأفضل أن نبحث جيدا في المكان فقد نجد بعض الذهب والفضة أو غيرهما من المعادن الثمينة، فالقدماء كانوا أثرياء جداً، يتجولون وهم يحملون ثرواتهم في جيوبهم. /مؤيد

-ويقولون إنهم كانوا يعتبرون أن الموت مجرد مرحلة عبور لحياة جديدة، لذلك كانوا يدفنون كنوزهم مع موتاهم / رامي.

تبادلوا هذه العبارات وهم يحدقون في هذه القضبان المعدنية، التي تنتصب أمامهم بشموخ وثبات وكأنما زرعت في أماكنها للتو.

كنان يدور حول القضبان وهو يمتحن قوتها وثباتها، لاحظ رفيقاه حركته وصمته، فوقفوا يتأملون حركاته، انتبه لهم، تأمل وجوههم ثم قال: لقد تم تصميم هذه الأعمدة لتكون سورا قويا..

-ربما تكون سورا لسجن، علق رامي، وضحك مؤيد!

-حجم المكان داخل السور وبراعة بنائه لا يمكن أن تكون صممت جدرانا لسجن، لا بد أنها صممت لحماية شيء أثمن من سجين رهين عقوبة أو موت مؤجل../كنان

تحرك الثلاثة وانتشروا بشكل عفوي حول السور، امتدت أيديهم، تتفحص القضبان القائمة عموديا وبعض القطع المعترضة التي تتصالب معها وتدعمها..

-يبدو لي أن هذه الأعمدة كانت عبارة عن دعامات إضافية لسور من الخشب أو اللبن أو الطين، وقد انهارت بقية البناء-السور-وبقيت الأعمدة المعدنية عصية على عوامل الطبيعة./رامي

وافقه رفيقاه، وقد رأوا بعين خيالهم بنية أسطوانية هائلة القوة، وأدركوا بعفو خواطرهم أن هذا السور قد بني ليكون سياجا لشيء شديد الأهمية أو باهظ الثمن!

-أرجو أن لا يكون كل هذا الجهد قد بذل لحماية قبر أو مومياء كما هو حال أهرامات مصر./ مؤيد

-بل هو قيمة مادية ومعنوية كبيرة، وربما كانت هنا خزينة الدولة كلها، علينا أن نبحث عن الذهب، فأنا واثق من وجود كميات هائلة منه هنا.. لنباشر العمل، فالوقت يداهمنا، وأخشى أن يداهمنا ما هو أخطر من الوقت!/ كنان

بان عليهم التردد والحيرة لبعض الوقت، ثم قطع رامي حالة الترقب: كيف سنحفر، أقصد ليس لدينا الأدوات التي تصلح للحفر والتنقيب؟

-نذهب اليوم ونعود غدا مع معدات الحفر ، وربما نحضر معنا بعض الأكياس لنقل الذهب والتبر و../ مؤيد

-عجيب أمركم! كم أنتم قليلو الحنكة وضيقو التفكير، إذا ذهبنا الآن فما الذي يضمن ألا يصل سوانا إلى هنا، فتحة المدخل أصبحت واسعة ومحتواها منظور من بعيد، من السهل ملاحظة البناء الأثري هنا، ولا بد أن يراه أي عابر سبيل!

قال كنان ذلك ثم تحرك مسرعا: تعالوا معي نحاول رفع هذا العمود المركزي، انظروا إليه، ألا يبدو وكأنه مطرقة زرعت هنا!

-نعم، يبدو أن أحد أجدادنا القدماء كان ينتظر قدومنا، فترك لنا هذه المطرقة الهائلة لنستعملها في البحث والحفر والتنقيب./ مؤيد

-إنها ليست مثالية للحفر، فهي أسطوانية الشكل، مقطوعة الحواف ولا شك أنها ثقيلة../رامي

-يا الله.. تريدون الحصول على الكنز الذي سيغنيكم إلى أبد الآبدين في ظروف مثالية؟ هل أجن، هل أحطم رأسي؟ قال كنان بغضب شديد..

دخل رامي إلى مركز الدائرة حيث تنتصب (المطرقة) كما اصطلحوا على تسميتها، أمسكها بكلتا يديه وأخذ يشدها، انضم إليه مؤيد من الجهة المقابلة وأخذا يحاولان زحزحتها، وتفاجأا أنها بدأت تتحرك قليلا، وبالمثابرة لم تمرّ سوى دقائق معدودة حتى كانت (المطرقة) قد صارت حرة بين يديهما..

رفعها رامي بيديه وبنشوة المنتصر: خذ يا كنان هذه المطرقة الثقيلة، ستساعدنا على الحفر! خطف كنان المطرقة من يد رامي والفرحة تعلو وجهه، وبدأ يحفر أرضية المكان داخل السور بسرعة وحيوية.. صادف طبقة سميكة من التراب، تمكن بمساعدة رفيقيه من إزالة جزء كبير منها، فظهرت تحتها قاعدة دائرية صلبة مصقولة بإتقان، أشبه ما تكون بالملاط (الاسمنت). "لا بد أن الكنز مدفون تحت هذه القاعدة" علق كنان وغمرت الفرحة الجميع، تابع مؤيد ضربها بالمطرقة بقوة زائدة، أخذت القاعدة المصقولة تتصدع تحت تأثير ضربات المطرقة الثقيلة، هنا أمسك رامي ذراع كنان: توقف لحظة.. قبل أن نستخرج الكنز يجب أن نتفق على طريقة توزيعه. رد كنان: ببساطة.. لكل واحد منكما الربع وأنا حصتي النصف.

مؤيد: أنت غبي، أم أنك تتصنع خفة الدم؟!

كنان: لولا دقة ملاحظتي، ومعلوماتي التاريخية عن الغابة وعن اللقى والآثار فيها، لما وصلنا للكنز..

مؤيد: ونعم المعلومات.. الخوف من قضاء حاجتك خلف الصخرة! استح يا رجل!

رامي: اسمع يا كنان.. إما أن نتقاسم الكنز بالتساوي نحن الثلاثة، أو نتقاسمه أنا ومؤيد مناصفة.

صاح كنان: وحقي؟ أين حقي؟! أنا..

قاطعه مؤيد وهو يرفع المطرقة في وجهه: سندفنك هنا أنت وحقك؟

تراجع كنان للخلف قليلا: كما تشاؤون، نحن أصدقاء منذ زمن واليوم نحن شركاء في الثراء، يجب ألا نختلف.. ومد يده نحو مؤيد: أعطني المطرقة لأساعدك في عميلة الحفر.

مؤيد: دع عنك!

تابع مؤيد ورامي تكسير القاعدة بالتناوب، وأبعدا أجزاءها المتكسرة عن مركز بحثهم، وكانت مفاجأتهم الكبرى، لم يكن تحت القاعدة المصقولة إلا بعض الأحجار والتراب، نبشوا، حفروا، فتشوا وبحثوا!

-لا يوجد أي دليل على وجود شيء مهم، الأفضل أن نغادر المكان وبسرعة، علق كنان.

-أنت كذاب تريد أن تصرفنا الآن، لتعود لاحقا بمعدات حفر متطورة وبمساعدة آخرين، وتستولي على الكنز، لن أبرح المكان حتى أحصل على حصتي، رد مؤيد بثقة.

جلس كنان جانبا، وانضم رامي لمؤيد يحفران بالمطرقة وينبشان بيديهما التراب والحجارة بنشاط وعصبية.

-تعال ساعدنا وإلا لن نعطيك الثلث كما اتفقنا، قال رامي.

وقف كنان.. نظر نحوهما، وقال: أنا ذاهب، خذا كل الكنز..

هجم رامي عليه: لن تذهب إلا ورجلنا على رجلك.

كنان: هيا بنا إذا.. لننصرف جميعنا..

رامي: لست أنت من يقرر، ننتهي من البحث، نتقاسم الكنز، ثم يمضي كل منا في طريقه.

كنان: أنا تركت لكم الكنز كله، فاتركوني أمضي.

بدأا عراكا بالأيدي، وأخذا يتصايحان بغضب، فتدخل مؤيد، وفك الاشتباك معززا بالمطرقة: اسمع يا رامي، كنان على حق، وأنا اقتنعت بما قال، لا يوجد هنا شيء عليه القيمة، وأفضل لنا أن نمضي.

لحظات من الصمت..

-كما تريدان، لقد اقتنعت، قال رامي، ثم أضاف والحسرة على وجهه: ليس لأن المكان لا قيمة له، بل لأنني لم أعد قادرا على الحفر. وابتسم فيما ظهرت الخيبة على وجه رفيقيه. ثم تابع ساخرا: أنا واثق بأننا لا يمكن أن نجد شيئا

ذا قيمة هنا، انظرا لهذه المطرقة الغبية لتعرفا أن هذا المكان لا يحتوي إلا الغباء!

رفع رامي المطرقة للأعلى وهو ينظر إليها بسخرية، وشاركه صديقاه النظرات الساخرة، وفجأة تحولت نظراتهم لشيء من الوجوم، ثم انتقلت نظراتهم من المطرقة لوجوه بعضهم البعض، ثم أعادوا النظر للأعلى نحو المطرقة، تعلقت عيونهم ببريقها الأخّاذ، والذهول على وجوههم..

"إنها مطرقة من الذهب الخالص"!!! قال كنان وهو يمد يده ليتلمس حوافها المقطوعة، وعليها كتابة محفورة بوضوح..

((نعم أيها السادة، إنها خاتم الملك، وأعتقد أن وزنها لا يقل عن خمسة كيلوغرامات من الذهب الخالص، وبالطبع يجب أن تعلموا أن قيمتها التاريخية تعادل أطنانا من الذهب..))

استغرب الثلاثة مصدر الصوت الذي جالت عيونهم بحثا عنه، كان رجلا كبيرا في السن يرتدي زيا رسميا ووقف على جانبيه عدة رجال بلباس الشرطة.. ثم أضاف الرجل الوقور وهو يسحب المطرقة منهم بهدوء: لا تستغربوا أيها الجهلة، فالجلبة والضوضاء التي صنعتموها استدعتنا على عجل. وزع نظراته في المكان، ثم عاد ليوزع نظراته عليهم:

استعملتم الكنز للحفر والتنقيب في التراب بحثا عن الكنز!

****

الدَّيْن

نعيش حياتنا، نمرّ بتجارب نتعلم منها، ونكتسب من الأهل والأصدقاء والمدرسة الكثير، تتجمع هذه الخبرات كلها لتكوّن شخصية كل فرد فينا، مثل شجرة كبيرة بالغة، ويصبح تغيير الطبع أو العادة العتيقة أشبه بعملية إعادة تشكيل منحنيات غير موجودة في جذع تلك الشجرة، فإما أن تحطمها أو تتركها على عجرها وبجرها، لكن أحيانا بعض القصص الصغيرة تحدث في حياتنا لتغيّر فينا بين ليلة وضحاها ما تعجز عنه كل كتب الحكمة والقانون والطب!

عرفني الجميع -على مدى نصف قرن هو عمري كله-باستقامتي في العمل ودقّتي في أداء مهامي الوظيفية، ومتابعة الصغيرة قبل الكبيرة، والوقوف عند كل تفصيل، وكان هذا سر نجاحي الدائم، كنت أفضل المهندسين على مستوى المؤسسة، وعرف عني الجميع مدى صرامتي في التعامل مع مرؤوسيّ وقسوتي عليهم إن قصروا في أداء أية مهمة موكلة لهم. وقد نلت على أدائي المتميز في العمل الكثير من المكافآت والدروع التقديرية والهدايا العينية والمعنوية، آخرها كان يوم قصدني سرمد في مكتبي، فقد قبضت مكافأة مالية تساوي خمسين بالمئة من راتبي الأساسي، تقديرا من السيد المدير العام على

إنجاز المرحلة الأخيرة من مشروع بناء الجسر الكبير خلال مدة قياسية، وأقل من المدة الزمنية المتوقعة بنسبة عشرة في المئة!

جاءني بعد قبض الراتب بقليل، سرمد شاب مفعم بالحيوية، بهي الطلعة، أعرفه بحكم العمل في مؤسسة حكومية واحدة، فقد قصد مكتبي سابقا في حالات متكررة من أجل تسيير بعض المعاملات الورقية في المؤسسة، اقتصرت حواراتنا على الحديث في أمور العمل حصرا، دون السماح له بكسر حواجز التراتب الوظيفي والاجتماعي، فلا يمكن لي أن أسمح لأي عابر سبيل في علاقاتي العامة، أن يدخل قصور المجد التي بنيتها بجدّي واجتهادي عشرات السنين، ليأخذ قيلولة ما بعد التعارف!

دخل سرمد مكتبي، ألقى التحية بكل ودّ واحترام، كانت ملامحه أكثر جدية مما ألاحظه في العادة، وكنت أنا في مزاج جيد، فقد تلقيت يومها المكافأة وما يرافقها من تهاني وتبريكات من الزملاء، تحدث سرمد بصيغة رسمية تقريبا: أستاذي الكريم، أنا أمرّ بضائقة مادية خانقة، وألتمس من سعادتكم أن تقرضني مبلغا من المال. وبأسلوب المدير سألته: كم المبلغ المطلوب، ومتى ستسدده؟

تلعثم قليلا: ما تأمر به سيادتكم.. حاجتي كبيرة لكني واثق أن كرمكم أكبر.

أعجبتني عبارات التبجيل وأسلوب التفخيم في حديثه، أخرجت المكافأة بظرفها، ومددتها نحوه: سترد الدين بعد ثلاثة أشهر، هل يكفيك المبلغ؟

عدّه بطريقة خاطفة، ثم هجم عليّ، يريد أن يقبل يدي، موقف نبيل من شاب مهذب يقدر عمل الخير وأصحابه! سحبت يدي وانسحب سرمد من مكتبي وهو يردد عبارات الشكر والامتنان.

مرّت الأيام.. موعدنا حان، وانتظرت أن يدق سرمد الباب ويدخل مكتبي وفي يده ظرف النقود كما سلمته له، انتهى نهار ذلك اليوم ولم يحضر سرمد، سألت عنه في اليوم التالي رئيس قسمه فقال: إن سرمد متغيب منذ ثلاثة أيام، سألته: إجازة؟

فقال: تقريبا!

أغلقت السماعة في وجهه، كم أحتقر الإجابات المائعة في العمل، ماذا يعني تقريبا؟ إمّا إجازة عادية، مرضية، ساعية، سنوية، أو أنه متغيب بغير عذر! إذا كان رئيسه بهذه المياعة فلا أستغرب أن يماطل سرمد في موعده!!

انشغلت بعدها في مهمة خارج مقر المؤسسة، رجعت بعد أسبوعين لدوامي في المؤسسة، كان سرمد على رأس جدول أعمالي، اتصلت برئيسه المباشر وطلبت منه أن يرسل سرمدا لمكتبي، وانتظرته دون أن يأتي، وتكررت الحكاية مرات ومرات، وبالصدفة أني لم أعد أصادفه لا على السلالم ولا في المصعد ولا في ممرات المؤسسة أو مداخلها!

تحدثت مع رئيسه وشرحت له الأمر فرد بكل فظاظة: تعلمنا منك أن هذه الأمور تنضوي تحت مسمى علاقات خارج إطار العمل، وبالتالي وحسب

توجيهاتكم فالموضوع خارج اختصاصي! وأغلق التلفون في وجهي قبل أن أتمكن من سبقه لفعل ذلك، وضيع!!

مرّت على الدين سنة تقريبا أو أقل قليلا، لم أترك خلالها موظفا أو موظفة إلا وحدثتهم فيها عن سرمد الوغد الخسيس، أوصلت رسالتي تلك بعشرات الطرق والأساليب، أنا لا أحتاج المبلغ بقدر ما أحتاج للحفاظ على مكانتي وهيبتي في المؤسسة!! كانت لدي الخطة لاستعادة المبلغ في الوقت الذي أحتاجه، لكني استثمرت سلوك سرمد الخسيس، لتوصيل رسائلي في كل الاتجاهات قبل أن أجعل سرمد يندم على الساعة التي دخل فيها ملعبي وقرر اللعب معي، شيء وحيد كان يستفزني أكثر ويثير دهشتي، معظم الذين ألقوا بالا للموضوع، كانوا لا يلقون بالا لحنقي وغضبي، ويقولون لي بكل برود وبلادة: لا تقلق ولا تنفعل زيادة، عندما يمتلك سرمد المبلغ سيعيده لك، سرمد إنسان طيب وابن حلال!

بعد اكتمال السنة تقريبا جاء موظف، كنت أرى وجهه في المؤسسة، لكني حقيقة لا أتذكر اسمه، بعد انتظار قصير دخل مكتبي، وقال لي، إننا نجمع "لمّة".. معونة لصديقنا سرمد، ونرجو منك أن تساهم بما تستطيع فأنت أبو الكرم والجود، وسرمد ابن المؤسسة..

قاطعته بحدة: سرمد ابن "مومسة" وليس ابن مؤسسة!

تفاجأت أنا بما قلته أكثر مما تفاجأ محدثي – خلدون كما عرفت لاحقا- فليس من طبعي أن أفقد السيطرة على أعصابي أو أن أتكلم بألفاظ نابية،

سكتّ حيرة وخجلا، لكن خلدون نظر إليّ باشمئزاز وقال: كانوا دائما يتحدثون عنك وعن أخلاقك وجديتك والتزامك بالعمل، فأشعر بالفخر لوجود شخص مثلك بيننا، لا أحد يلومك يا أستاذ لأنك تطالب بحقك، سرمد أخطأ عندما لجأ إليك، لأن هناك من صورك له كملاك..

قاطعته: إياك أن تتطاول بكلمة.. أنت في مكتبي، فاخرج قبل أن..

-أمرك أستاذ سأخرج، لكن تذكر يا أستاذ ليس مثلي من يخطئ بحقك، أنت أستاذ كبير ومحترم غصبا عن الجميع..

ارتحت قليلا لعبارته الأخيرة، فقلت له وقد أعطاني ظهره في طريقه للخروج من مكتبي: صاحبك الذي تطلب المعونة له سرقني وسأزج به في السجن قريبا.

ظهرت عليه المفاجأة وشيء من التأثر، فرجع بسرعة نحوي: أستاذ لا تكن قاسيا على الرجل، أولاد سرمد قد يموتون إذا لم نساعده وننقذهم من الموت، وأنت تريد زج أبيهم المسكين في السجن، هل تريد أن تحمل وزر جريمتي قتل؟!

وددت لو أسأله ماذا يعني؟ وددت لو أصفعه على ما يقول، لكني وجدت نفسي عاجزا عن اتخاذ أي فعل أو ردة فعل.. جلس خلدون مستغلا صمتي: اعلم يا دكتور عاصم أن خلدون متزوج من ابنة عمّه..

-يا للمعلومة الهامّة، أضف لمعلوماتك.. أنا متزوج من ابنة خالي.

-في عائلة سرمد يوجد مرض وراثي، انحلال دم، ويحتاج ولداه لتبديل دم بشكل دوري.

-الدولة تؤمن هذه القصص مجانا.

-نعم.. الدولة تؤمن ما هو متوفر، فإذا لم تتوفر الزمرة المطلوبة فعلى سرمد أن يشتري الدم من المشافي الخاصة، وهذا الأمر استنزف ميزانيته ورصيده، عندما جاء سرمد إلى مكتبك ليستدين منك، لم يأت مختارا، كنت أنت يومها الشخص الوحيد الذي لم يستلف منه سرمد بعد.. سأل كل أصدقائه وزملائه، حتى بقية المدراء والمستخدمين، معظمهم لهم عليه مبالغ مالية، وبعضهم سلفه مرة ورفض أن يسترد الدين منه، فامتنع سرمد عن الاستدانة منهم.. جاءك يومها لأنه لم يبق أمامه أي باب آخر يدقه.

-ولماذا لم يأت لي ليشرح ظروفه؟ كنت سأتفهمه.

-عندما أعطيته مبلغ الدين، كان سرمد سعيداً جداً ومبهورا بك وبكرمك، وكيف أنك أعطيته المبلغ بالظرف، هكذا دون نقاش أو حوار.. كان يتحدث عنك وكأنه يتحدث عن ولي أو ملاك، حتى عندما كنت تطارده وتشنّع عليه، استمر في شكرك وإطناب كل صفات القداسة عليك!

-أما كان من الأيسر عليه أن يأتي إلي ويضعني في صورة الوضع؟

-يا أستاذ أنت إنسان محترم ومهيوب، والجميع خوّفه منك، ونصحوه بالابتعاد عن طريقك، فلو شرح لك ظروفه، ما كنت لتصدقه، فأنت لا تهتم إلا بسماع مديحك والإطراء عليك، أو عبارة.. حاضر سيدي!

-أنا كذلك؟!

-بصراحة

-.....

-أنت.. وضعك.. أسوأ!

-اخرج من مكتبي قبل أن تصبح أنت ووضعك أسوأ!

-سأخرج.. فقط أحب أن أخبرك أن سرمدا كان يعمل مساعد طيّان، كعمل إضافي من أجل دخل إضافي.. قبل أسبوع سقط عن "السقالة" وانكسرت يده، وأولاده أمانة في أعناق أصحاب القلوب البشرية!

خرج، وقبل أن يغلق الباب وراءه تماما، فتحه ومد رأسه وتابع بلؤم: وليس على الوحوش حرج!

-اخرج. اخرج..

أغلق الباب بهدوء دون اكتراث بصياحي.

الوحوش؟! أنا وحوش؟! أعطيته مالي بمجرد التلميح لحاجته له، ثم يقولون عني وحوش؟!

....

.. هل يعقل أنني قاس وجاف إلى هذا الحد؟ هل هيبتي واحترامي ونجاحي وحرصي على عملي ومحبتي لمؤسستي هي صفات سلبية، هل بعد كل هذا التعب والتاريخ المديد من الصراع لتكوين نفسي، تكون صورتي مشوهة إلى هذا الحد؟!

.. ولماذا أتأثر بكلام خلدون، ومن هو خلدون ليقيمني؟ أنا أكبر من خلدون، إن عقل خلدون الصغير لا يمكن أن يستوعب رجلا بحجمي وبفكري وبمستواي، أنا معادلة من الدرجة العاشرة وعقل خلدون عاجز عن فهم معادلة من الدرجة الثانية فكيف سيفهمني؟!

...

مرّ عليّ ذلك اليوم طويلا ومتعبا، وعندما غادرت مكتبي آخر النهار، قرأت لافتات من الكره والبغض في عيون كل الموظفين، فقدت حينها شعوري بالأمان والاحترام الذي كنت أراه في لوحات إعلان عيون الناس حولي.

ما الذي تغير فجأة؟ هل سمع الناس حواري مع خلدون؟ هل اقتحموا كرتي الدماغية وقرأوا أفكاري في منابتها؟ هل دخلوا قلبي وشعروا فيه ببرودة الأحاسيس وقساوة المشاعر؟!

لم أرجع للبيت يومها، خشيت أن أرى تصحر المشاعر في عيون زوجتي وأولادي، أو أن يلاحظ أحب الناس إليّ عواصف القلق في عيوني.

اتصلت بزوجتي وقلت لها أني مضطر لمتابعة مهمة طارئة في العمل، ذهبت لأبعد فندق في أطراف المدينة، وقضيت ليلتي في صراع بين أفكار غريبة حامت حولي مثل طيور اللقلق، مناقيرها الطويلة تنهش عقلي بوحشية!

صباح اليوم التالي توجّهت للبيت بدلا من الذهاب لعملي، وفي البيت فتحت قلبي لزوجتي ورويت لها الحكاية كاملة، استمعت لي بكل رحابة صدر، وقبل أن أنهي حكايتي بأسئلتي التي أكلت رأسي، لمحتُ الدموع في عينيها.

قالت: باختصار.. أنت أفضل رجل في العالم، جاد وناجح وصادق ومستقيم.. ولكن؟!

-لكن؟!!! حتى أنت تقولين لكن؟!

-تبالغ قليلا.. في جديتك وصرامتك!

صدمتني صراحة زوجتي، إذا كانت تعرف هذا عني فلماذا لم تخبرني به قبلا؟!

هكذا تربيت وكنت دائما راضيا عن نفسي، أعيش في جنة حقيقية من السلام الداخلي والتصالح مع نفسي ومع الزمن والتاريخ والجغرافيا، كانت حياتي سلسلة طويلة ومستمرة من النجاح والتفوق، حتى جاء سرمد وهزمني بفقره وعوزه وطيبة قلبه!!

لكني لن أستسلم، النجاح ليس ألا تفشل، النجاح هو القدرة على تجاوز الفشل حين وقوعه.

استشرت زوجتي ووافقت: هيا قبل أن يعود الأولاد من المدرسة.

اتصلت بالمؤسسة، طلبت اليوم اعتباري في إجازة، وبناء على العنوان الذي طلبته منهم، وصلتُ وزوجتي إلى بيت سرمد.

البيت بسيط وصغير لكنه غاية في الأناقة والترتيب، أشياء بسيطة موزعة بشكل عملي مع استغلال مميز للزوايا، تطغى الألوان الزاهية البهيجة على البيت، مع هيمنة للون الأبيض في تباين مريح مع ألوان الربيع، أصص الورد موزعة في مدخل البيت وفي صالون الاستقبال، انتابني شعور بأنها موجودة

أيضا في كل غرف البيت، كل شيء في ذلك البيت يوحي بالألفة والدفء، استقبال سرمد وزوجته كان أكثر دفئا من كل ما يوحي به عفش المنزل، قدمني لزوجته بصفات كبيرة طالما سمعت مثلها، لكنها المرة الأولى التي شعرت فيها بأنها لا تنطبق علي، رغم لهجة الصدق الطاغية التي توحي بها طريقة سرمد في الكلام، غلبني شعوري القديم، شعور ما قبل الدَّين، هذا الشاب طيب وودود وقريب من القلب، جلسنا، قدمت له ظرفا من المال، حاول أن يعتذر، فأفهمته بطريقتي الحازمة الحاسمة أنها الطريقة الوحيدة أمامه لقبول اعتذاري عن كل إساءاتي بحقه، تمنّع كثيرا، لكني كنت حازما جداً.

أخذ الظرف، أخرج النقود، تأملهم للحظة، ثم استأذننا بالخروج لبضعة دقائق: أعدّي الشاي يا لطيفة، لن أتأخر..

في غيابه حدثتنا لطيفة: سرمد ابن عمي، أحبّ موظفة عندكم في المؤسسة وإحتار كيف يبلغها حبه، فجاء يستشيرني، لم أتمالك نفسي من البكاء يومها، وأبلغته أني أحبه، وأني كنت أنتظر أن يصارحني هو بحبه.. فقال لي إنه يحبني أيضا ويتعذب كثيرا بسبب هذا الحب، فنحن لدينا مرض وراثي في العائلة وليس من الحكمة أن نتزوج من بعضنا.. تغلّب الحبّ على الحكمة وتزوجنا، متفقين ألا ننجب أطفالاً (تتابع ضاحكة) ولا ندري أهو غدر من القدر أم تواطؤ منا، فقد حملت مرة واحدة وأنجبت فيها توأمين من الصبيان، كلاهما يحمل المرض وراثيا، انحلال الدم يحدث معهما دوريا،

ورغم هذا نحاول أن نكون سعداء ضمن المساحات التي لا تتساقط فيها قذائف القدر على رؤوسنا..

دخل سرمد قاطعا حديثها: اعذروني، الأولاد يتشهون الموز منذ أسبوع، ولم أتمالك نفسي عن الإسراع بإحضار الموز لهم بمجرد حصولي على ثمنه منك يا أستاذ، أولادي سيفرحون جداً، سأقول لهم أن هذه الفاكهة اللذيذة هدية من سيادة الأستاذ الدكتور المهندس عاصم..

-لا.. رجاء.. قل لهم فقط هذه من عمّكم.. عمّكم عاصم، فلأولادك دين كبير في عنقي!!

****

أنا والأنانية

أنا لا أكره شيئا في الوجود مثل كرهي وبغضي للأنانية والأنانيين، أنا أكره استخدام ضمير المتكلم أنا، رغم أني في كثير من الأحيان لا أجد بدّا من استعماله، يعني مثلا، كيف يمكن أن أقول أنا أكره الأنانية وهل ينفع استخدام ضمائر أخرى للتعبير عن نفسي بدلا من "أنا" مثل نحن وهم وهنّ وهؤلاء وأولاء؟!!

ربما سبب كرهي الشديد لهذه الكلمة ولهذا الطبع المسمى أنانية هو حظي العاثر فقد ابتلاني الله بمحيط من البشر كلهم أنانيون!

منذ طفولتي الأولى اكتشفت السلوك الأناني عند ابن الجيران، حتى قبل أن أعرف مسماه ومعناه، فابن الجيران الأناني والدنيء كان يرفض أن يشاركني في شطيرته، أمّي كانت –وما زالت-امرأة طيبة وكريمة، وكانت تعطيني شطيرة مثل شطيرته وأحيانا أكبر، لكنّي كنت -وما زلت-نهماً للطعام، صحتي جيدة ومعدتي تساعدني على هضم الطعام بسرعة، أمّا هو فكان يأكل ببطء، ولأن شطيرتي تنتهي بسرعة، كنت لا أجد نفسي إلا وأنا أتشهى شطيرته.. مرّة أعطاني لقمة، ولم يكررها، لا يا ربي، لأكون منصفا كررها مرة أو مرتين بعد ذلك، لكن والدته رأتني في آخر مرة.. أقسمتُ لابن الجيران عشرات المرات بأنّي سآخذ عضة واحدة من شطيرته، وبعد إلحاح

شديد منّي، لأنه بخيل وشحيح وأناني، أعطاني بعدها الشطيرة فابتلعتها في لقمتين أو ثلاثة، فأخذ يبكي ويجعر بصوت عال، حتى التمّ علينا كلّ الجيران، وخرجت والدته على بكائه الصاخب، وعندما عرفَتْ بما جرى أصدرَتْ فرمانا حازماً لولدها، يقضي بألا يعطيني شيئاً من شطائره بعد اليوم، عائلة من الأنانيين! لم يكن الولد ملوماً على تصرفاته وحرماني من المشاركة في شطيرته، فأمّه كانت أكثر أنانية منه!

في المدرسة، ومنذ الصف الأول، ترسّخت لديّ قناعةٌ مطلقةٌ بأنّ جينات الأنانية متجذّرة في دم هذا الولد، فذات مرة طلبتُ منه أن يُـمَـلّـيني الإجابات في الامتحان فرفض، عجيب أمره! لماذا يرفض؟ وماذا يضيره إذا نقلت عنه وحصلت على علامة جيدة، هل يخشى منّي أن أنافسه على ترتيبه في الصف؟ إطلاقا، ليس له الحق في قلقه من ناحيتي، فالفرق كبير في المستوى بيننا، أنا ما قبل الأخير وهو الأول على الصف، ما الذي يضيره لو زادت علاماتي؟!

قلت له: الأمر الآن يختلف عن موضوع الشطائر، لأني إذا أكلتُ جزءاً من شطيرتك فستنقص حصتُك منها وقد تبقى جائعاً، لكن هنا.. أنت ستأخذ علامتك كاملة وستكسب فوق ذلك شكري وامتناني، أنا صديقك وابن جيرانكم سأحصل على علامة عالية، وسترفع رأسك وتفتخر بي وبتفوقي.. لكنه رفض، أناني بطبعه ولا يمكن إلا أن يكون كذلك، يريد

النجاح والتفوق لنفسه فقط، ويضنُّ عليّ ببضع علامات قد تُحسّن وضعي الدراسي!

لقد صدمني ابن الجيران نفسياً، وترك عندي عقدة من الأصدقاء الأنانيين وما أكثرهم حولَنا، لكن ماذا أقول؟ حظّي.. حظّي أنا سيء، دائماً يظهر لي الأنانيون في طريقي، فجارنا الآخر ركّب تلفوناً منذ فترة، واشترك بالإنترنت، فرحتُ جدّاً، ها قد أصبح بيننا إنسان متحضر، يهتم بالإنترنت وبمواقع التواصل الاجتماعي، صديق يمكن للإنسان أن يصاحبه ولا يشعر بالحرج لصحبته، فهو مثلي يحب الإنترنت والصداقات الفيسبوكية، جلست تحت شرفة منزله وتمكّنت من التقاط شبكة الإنترنت اللاسلكية، بقيت لعدّة أيام أدخل الإنترنت من خلال شبكته، وفي اليوم الخامس عشر وبعد أن أصبح عندي حساب على الفيسبوك وعندي أصدقاء وصديقات، وجدت أن الجهاز يطالبني بكلمة عبور لدخول شبكة الإنترنت، ما هذا التصرف الخسيس؟!

لم أسكت بل ذهبت إليه مباشرة، عندي التزامات وارتباطات فيسبوكية ساخنة، ولا مجال للتلاعب في علاقاتي ومواعيدي مع الصديقات والأصدقاء، عندما فتح الباب وجدني في غاية الانفعال، فسألته مباشرة حتى دون أن ألقي السلام عليه: ما هذا الذي فعلته؟ كيف تضع كلمة سرّ لشبكة الإنترنت؟ ألا تعرف أني أستخدمها وأني بحاجتها؟

-الإنترنت عندي بطيئة جدّاً بسبب كثرة المستخدمين، فاضطررت لوضع كلمة الحماية لشبكتي.

كلمة "اضطررتُ" تقبلتها أنا وكأنها اعتذار مبطن منه، فدخلت غرفته، جلست وراء كومبيوتره.. وقلبت بضعة صفحات على كومبيوتره، وتفاجأت! صور لبنات شبه عاريات: آه يا ملعون.. لهذا تقفل الشبكة تريد أن تستمتع بالعسل لوحدك؟ فقال وهو يشدني بكتفي بكل وقاحة: وما علاقتك أنت بي وبما أفعله في بيتي وفي كومبيوتري وشبكتي؟! ارحل من هنا، اغرب عن وجهي..

-اسمع يا جاري "الأزعر" طز بك وبشبكتك، أنا لا أريد شبكة ولا إنترنت، لكن حضرتك فتحت الشبكة عدة أيام، وأنا دخلت من خلالها، أصبح عندي أصدقاء وصديقات أيضا، وعليّ التزامات ومواعيد للدردشة، وأنت بوضع كلمة الحماية وضعتني في موقف محرج أمام أصدقائي وصديقاتي، ماذا يضرّك إذا دخلتُ من خلال شبكتك؟ لماذا هذه الأنانية؟ ألا تفكر بجارك ورفيقك؟ أم أنك تعلمت الحياة المادية وحبّ الذات من ثقافتك الغربية ودراستك الجامعية؟!

لم يردّ على تساؤلاتي، فقط ترجّاني عدّة مرّات -وهو يدفعني دفعاً-أن أغادر بيته. أنانية مفرطة!! لكن ماذا أقول.. يبقى مجرد صديق قديم وابن الحارة التي تربينا فيها، ولا يحقّ لي لومه كثيراً إذا كان أبي -أبي الذي ابتلاني بهذه

الحياة-يتعامل معي بأنانية، هل تصدقون أن هناك أبا يعامل ولده بأنانية، إليكم المفاجأة الصاعقة، أنا أبي يعاملني بأنانية!

منذ فترة جاءني صديقي ماهر، وهو شاب أناني أيضا مثل كلّ معارفي، قال لي: لقد افتتحت محلّا في السوقِ لبيعِ الأدواتِ الرياضيةِ، ولأنّك صديقي وعاطل عن العمل، سأجعلك شريكا معي في المحل.

فرحت والله في أعماق نفسي، هذا أول إنسان أصادفه ليس أنانيا، أو هكذا تخيلت لبعض الوقت، فقمت وشكرته على نبل موقفه وعلى عرضه السخي، وطلبت منه مزيداً من التوضيح، فقال: أنا موظف، وعندي محل ملابس آخر في الطرف الثاني من السوق كما تعلم، لذلك..

شرد ذهني للحظات تخيلت فيها أنه سيكون غيريا بعكس بقية البشر ويهديني المحل الثاني.. لكنه أيقظني من شرودي وتابع:

لذلك ستدير أنت المحل بيعا وشراء، وستحدد لنفسك ساعات الدوام، لأن حصتك في العمل ستكون بناء على إنتاجيتك، يعني أنت بتعبك وأنا برأس مالي، نصف الأرباح لي والنصف الآخر لك، فأنا أعتبر أن الشراكة في الربح ستكون هي الحافز لك في العمل والرقيب عليك بنفس الوقت، لأنك كلما عملت وتفانيت أكثر سيزيد دخلك.

-إذا كنت أنا سأقوم بكلّ العمل، فلماذا أعطيك نصف الربح؟! لماذا هذه الدناوة والأنانية؟!

ضحك طويلاً ثم قال: ما أظرف مزحك، أنا صاحب المحل وأملك كل ما فيه من بضاعة.

-نعم، أنا أمزح، لكن أريد فرصة للتفكير قبل أن أقرر!

كاد أن يخبط رأسه بالحائط من شدّة الغيظ! وليخبط رأسه بألف حائط، هو يفكر بمصلحته فقط، أنانية مطلقة، فلماذا لا أفكر أنا ببعض العقل والمنطق بمصلحتي بدلا من أن أكون لقمة سائغة للهضم والاستغلال والبلع؟

لذا.. أنا فكرت بالموضوع بطريقة أخرى، لماذا لا أشتري محلا في السوق، وأكلّف أحد معارفي أو أصدقائي بالعمل فيه لصالحي، وأقبض نصف الربح وأنا نائم في البيت، بدلا من أن أشتغل عند صديقي الأناني ماهر، الذي يريد أن يقاسمني تعبي وعرق جبيني بأنانيته الوضيعة، وهنا كانت صدمتي الكبرى!!

قصدت والدي وجلست معه وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث، وجذبت طرفه بشكل خاص نحو الاستثمار في السوق والتجارة، ولاقى حديثي استحسانا من قبل والدي، وهذا شجعني لأتابع مركّزا الحديث على مشروع ماهر، فوجدت مزيدا من القبول والرضا عند والدي، فقلت له: أنا فكرت يا أبي وقررت أن أكون صاحب الاستثمار بدلا من أن أكون عاملا عند ماهر.

فرح أبي أكثر، لكنه سألني: كيف؟ ومن أين لك رأس المال؟

فقلت له: منك.. وشرحت له: أنت رجل مسنٌّ، تعيش أنت وأمي في هذا البيت الكبير الرحب الواسع لوحدكما، بعد أن تزوج أخواني وأخواتي، فإذا بعتَ البيتَ وأعطيتني ثمنه، أشتري أنا محلاً في السوق وتستأجرُ أنت بيتاً لي ولك ولوالدتي.

غضب والدي واستنكر الأمر بأنانية مفرطة، وطردني من مجلسه، وهو يزمجر ويصيح غاضباً، وشتمني عدة مرات أثناء موجة غضبه.

لماذا كل هذا الانفعال؟ لماذا يحتكر بيتا طويلا عريضا ليعيش فيه هو ووالدتي فقط، ما حاجتهم لهذا البيت الكبير، ألا يفترض به المنطق والفطرة السليمة –كأب–أن يضحي من أجل ولده، من أجلي أنا؟ لكنها أنانية الآباء، وما أقسى أنانية ذوي القربى من أنانية!

كنت أتوقع بطبيعتي المتفانية الطيبة، أن أجد شخصا ما متفانيا وطيبا مثلي، لذا لم أفقد الأمل فقصدت أمي، وأنا أعرف أن الأم -كما علّمونا في المدرسة عن طائر النورس-تضحّي بروحها من أجل أولادها، لكن يبدو لي أن أمي امرأة مختلفة عن كل الأمهات، شتّان بينها وبين أنثى طائر النورس، رفضت أمي أن تبيع ذهبها لتساعدني في بدء مشروعي التجاري، قالت لي إنها امرأة عجوز، ولا تملك رصيدا لستر آخرتها إلا هذه الأساور التي خرجت بها من هذه الدنيا، وقالت لي: لن أفرط فيها أبداً!

كل أنواع الأنانية مزعجة وقاهرة، لكن أن تكتشف أن الأم أنانية، وأن أمّك تفضل نفسها عليك وعلى مستقبلك فهذا أقسى أنواع الأنانية.. ليت كان لي أمّا كأم صغار النوارس!

بعد أسبوع من الفشل في محاولة إقناع أهلي ببيع بيت أبي أو ذهب أمي، حصلت منهما على مبلغ صغير أغناني عن العمل عند ماهر، وعندما نفد المبلغ ذهبت إلى محل ماهر الكبير، وقلت له أنا موافق على العمل عندك والربح مناصفة، فقال لي: لقد تأخرت كثيرا بموافقتك، هناك من يعمل في المحل منذ شهر وبثلث الأرباح فقط، لُمته غاضبا: كيف توظف غيري؟ هل لأنّه قبِـل بأجرٍ أو بنسبةٍ أقل؟ قال: لا.. لكن أنت تأخرت كثيرا، هل تريدني أن أعطّل المحل شهرا كاملا بانتظار قرارك؟!

ما أحقر الصديق الذي لا يضحي من أجل مصلحة صديقه!

اضطررت للعمل عند ماهر، في المحل الذي يديره هو مباشرة، براتب شهري محدود، كان يطير ثلثه شهريا بسبب الحسميات، مرة بحجة التأخير، ومرة بذريعة أخطاء في الشغل.. للأسف استغل ماهر حاجتي للعمل بكل أنانية وجشع صغار الكسبة ومحدثي التجارة!

في هذه الفترة تعرّفتُ على إحدى زبونات المحل، شابة جميلة لطيفة اسمها مها، وجدت فيها فتاة أحلامي، بل لقد جُمعت كل فتيات أحلامي فيها، بدأنا نتواعد، وشيئا فشيئا بدأت ألاحظ أنانيتها هي الأخرى، في البداية أعماني انبهاري بها وبجمالها عن سلوكها الأناني، فبعد فترة قصيرة من مصارحتي

لها بحبي لها وإعجابي بها، صارت تسألني في كل لقاء أو حديث على التلفون: هل تحبني؟ هل اشتقت لي؟ أو تقول لي: ما أجمل قميصك اليوم، لقد راقني هذا اللون، أشعارك التي تكتبها تؤثر بي.. كلّ أحاديثها عن نفسها، عن مشاعرها، عن ردّات فعلها، وأحيانا تملأ جلستنا بثرثرتها عن أمها وأخواتها أو عن صديقاتها.. أين أنا في حياتها، أين أنا في قاموس اهتماماتها؟ أنانية مفرطة، أنا أحبها وأكاد أموت من شدة حبي لها، وهي مشغولة بالجيران واللباس والعطور، إنها لا تهتم بي، كل ما يهمها نفسها فقط، حتى إنني حاولت مرة أن أحضنها وأقبلها، عندما زارتني في المحل وكنت لوحدي هناك، لكنها رفضت، وقالت: "الناس ستلوك سمعتي.. أنا، وأهلي سيغضبون مني.. أنا، وأنا.. سأسقط من عينك.." كل عباراتها تتحدث عنها وعن ردود فعل الآخرين ناحيتها، لم تهتم بأشواقي أنا، ولم تكترث لرغباتي أنا!

صدمتي كبيرة، حتى حبيبتي، حتى الفتاة التي اخترتها لتكون سندي وعوني في هذه الحياة، لتطفئ نيران وحدتي وتمنحني حبها وجسدها وروحها، لتسهر على راحتي، وتقضي نهارها في خدمتي، حتى هي كانت أنانية مثل كل الناس الذين عرفتهم في حياتي!

بعد صدمتي عاطفيا ووجدانيا بحبيبتي سابقا مها، لم يعد لبقية الأنانيين في حياتي قيمة، فهل سيشكل بائع الجرائد الأناني موقفا مفاجئا لكم، إذا قلت لكم أنني بعد فترة توظفت مراسلا في دائرة البرق والهاتف، وتعودت بسبب

حبي للثقافة والعلم، أن أتصفح الجرائد اليومية، لكن في بلدنا من يعطيك فسحة للثقافة أو للعلم؟ تخيلوا ماذا فعل بائع الجرائد الحقير؟!

لقد اشترط عليّ أن أشتري الجريدة، وإلا لن يسمح لي بتصفحها والاطلاع على محتوياتها؟! قلت له: ماذا يضيرك يا رجل؟ أين المشكلة؟ أنا أفتح الجريدة، أقرأ العناوين وأطلع على الصور، ثم أطويها بكل لطف وأعيدها بكل ذوق كما كانت، ماذا يضرك فعلي هذا؟!

لم يضع أي تفسير، ولم يحاول تكليف نفسه عناء تبرير قراره الجائر: فقط لا أريدك أن تتصفح جرائدي.

-أنا موظف بسيط، إذا وجدت في الجريدة شيئا جديرا بشرائها سأشتريها، وإلا فلا، ألا يتفحص الناس الخضرة والملابس والأحذية قبل شرائها؟

-أنت تتفحص الجرائد منذ شهور وبحياتك لم تشتر واحدة! لماذا تتعب قلبي وتتفحصها كل يوم؟

-إنه شغف المثقف، فضول علمي محمود.

إيه ماذا أقول، أنانيته جعلته يغلق الجرائد بالكباسات المعدنية!! مجتمع أناني!! كلهم أنانيون وليس آخرهم زميلي في العمل، موظف مثلي في دائرة البرق والهاتف، عندما تأخرت أول مرة عن الدوام، عاقبوني، فطلبت منه بكل ود: عندما أتأخر، أرجو منك أن توقّع عني، لا أحد سينتبه، وستكسب مودتي وصداقتي.

لكنه رفض، وقال بمنتهى اللؤم والأنانية: أنا لا أوقع إلا عن نفسي!
عندما بدأ حديثه بكلمة (أنا) فهمت فورا أنه إنسان أناني.. أناني جداً.
أنا لا أحب الأنانيين، لكنهم قدري.. أنا!

****

عزاء صاخب!

تبلغنا خبر وفاة هائل، الأخ الأكبر لعاطف، عاطف صديقنا الحميم، والعضو الأهم والمحوري في شلتنا الطلابية، تعرفنا عليه منذ اليوم الأول في دراستنا الجامعية، وكل يوم مر علينا زاد من مودتنا ومحبتنا.. تجذرت العلاقة بين أفراد الشلة وعائلة عاطف، بسبب طبيعة عاطف وأهله الودودة المحبة للأصدقاء.. تلقينا الخبر ببالغ الأسى، فنحن ندرك كم يحترم عاطف ويجلّ أخاه الأكبر، لذا قررنا أن نذهب يوم الجمعة لتقديم واجب العزاء، ولنضع أنفسنا تحت تصرف عاطف وعائلته..

وصلنا بيت أبي هائل بعيد منتصف النهار بقليل، لنتمكن من البقاء أطول فترة ممكنة بجانب صديقنا المكلوم، كما اقترح نبيل..

استقبلنا عاطف بحرارة وحفاوة بالغتين، وكذلك كان استقبال أبيه وبقية أفراد الأسرة، في جو مهيب من الحزن والكآبة، بدأنا نردد عبارات العزاء بالتناوب، ثم انتقلنا بشكل عفوي للحديث عن مزايا الفقيد ومناقبه العظيمة، وأخذنا التأثر في أجواء من الانفعال الوجداني، حتى ارتقى المتوفى في حديثنا إلى عداد الشهداء والصديقين، وغلبتنا دموعنا ونحن نتقاسم التساؤلات مع أفراد أسرته: كيف سيستمر الكون بعدك يا هائل، وأي

خسارة حلت بالبشرية من جراء وفاة هائل، هائل الرجل الذي مات وهو يؤدي واجبه في البحث عن لقمة العيش في جيوب الآخرين وبيوتهم!

كان نبيل أكثرنا تأثرا، وارتفع عويله عاليا، على غير العادة، لقد حضرت وإياه عدة تعازي، لكنه كان دائما ضاحك الثغر حاضر النكتة، ولو كان واقفا على قبر المتوفى!

علا صوت نبيل وزاد عويله، في الوقت الذي سمعنا فيه جرس الباب حيث دخلت مجموعة من أقارب عاطف أو من جيرانهم، استقبلهم أفراد العائلة ودعوهم للجلوس معنا، وبعد قليل من دخولهم، قام أبو هائل بادي التأثر وتحدث لعاطف: أصدقاؤك قادمون من سفر بعيد إضافة لـتأثرهم الشديد، ادخل بهم غرفتك لتأخذوا راحتكم..

دخلنا غرفة عاطف على وقع جلجلة صوت نبيل، لقد ميزتها جيداً، كانت ضحكة مجلجلة ولم تكن بكاء ولا عويلا، أسرع عاطف بإغلاق الباب، ليكتم ما يمكنه من فضيحة يكاد نبيل أن ينشرها في المحيط.. نظرنا جميعا لنبيل، الذي أمسك نفسه بصعوبة عن الضحك: أنتم تعرفونني جيدا، أنا لا أحب أجواء الحزن والعزاء ولا أستطيع إمساك نفسي، خاصة عندما يبدأ المنافقون بتعداد مناقب الميت، ويندبونه وكأنه أبو زيد الهلالي!!

-لكنه أخي يا نبيل!

الله يرحمه.. رددنا جميعا بشيء من الوقار والخشوع، وانتقلنا بعدها للحديث عن قصصنا الخاصة، وبعد حوالي الساعة دخل والد عاطف ليعلن عن جهوزية طعام الغداء..

دخلت أطباق الطعام الشهية، وبدأنا نأكل بنهم، إلى أن سأل صديقنا هاني: ألا يوجد لديكم بعض الشراب يا عاطف؟

-بالتأكيد يوجد.

وحضر المشروب.. وشربنا، نخب كل واحد فينا، ولم ننس أن نشرب نخب هائل رحمه الله، ثم قام صديقنا أمجد وقد أخرج شريط كاسيت من جيبه، ووضعه في جهاز التسجيل الذي نعرف مكانه جيدا في غرفة عاطف: ستسمعون الآن أجمل أغاني الطرب..

بدأنا نصغي، أعجبني اللحن، لكن الإيقاع لا يمكن الشعور به إلا بالصوت العالي، فقمت ورفعت صوت المسجل قليلا، تأثر أصدقائي وبدأوا يتمايلون مع الإيقاع، ويتبادلون الأنخاب، نبيل صرخ من طرف الطاولة الآخر: ارفع الصوت أكثر، أنا أموت بالعتابا والميجانا..

دارت الرؤوس وطابت النفوس، قام نبيل وباشر بالدبكة، شابكا يده بيد هاني، هاني أمسك بيد عاطف، والتحقنا جميعا بهم، وبدأ إيقاع الدبكة يتوحد، وصارت أصوات خبطات أقدامنا أقوى من صوت الموسيقى القادم من المسجل رغم ارتفاعه، وانسجمنا في الدبكة، وبدأ كل واحد منا

يستعرض حركاته البهلوانية، مع أصوات التشجيع والصفير والتصفيق من البقية..

فجأة انفتح الباب، في حركة أشبه بالاجتياح، دخل أبو هائل، وقد اكتنز وجهه بالغيظ، وصاح بصوت طغى على كل الصخب المحيط بنا: يا أولاد الكلب، أكلتم وضحكتكم ورقصتم ودبكتم، لكن لماذا هذا الصياح، أيها الكلاب يا أولاد الكلاب هل نسيتم أن تراب ميتنا لم يجف بعد؟ وأن البيت يعج بالمعزّين؟!

غادرنا البيت هرولة وجريا ووثبا، قبل أن نسمع بقية الشتائم، واكتشفنا ونحن نجري مهرولين فارين، أن عاطفا كان قد سبقنا جميعا في الفرار من بيت أبيه!

****

سائق جديد

دخل أبو مهران بيته غاضبا يصيح ويزمجر، خبط باب البيت خلفه بقوة وهو يتابع صياحه: هذا الولد غبي جداً ولا يفقه شيئا في قيادة السيارة، ولا أمل بأن يتعلم شيئا، يداه تتخشبان على المقود، رجلاه ثقيلتان على دواسة البنزين وعلى المكابح وعلى ناقل السرعة، شيء مخيف لا أصدق ما حدث، أكاد أموت من شدة غيظي، لولا العناية الإلهية لكنا الآن في عداد الأموات!!

تابع صياحه على نفس الوتيرة إلى أن شعر بأن صوت زوجته قد أصبح أعلى من صوته، توقف لثواني ليسمع ما تقوله زوجته، لم يع شيئا من صوتها العالي، نظر لوجهها، الآن فقط اكتملت الصورة في ذهنه، زوجته كانت تضحك، لم يصدق ما يراه ولا حقيقة ما يسمعه من هدير ضحكاتها، وتراقص جسمها تحت تأثير ضحكاتها المجلجلة، نظر إليها فاغرا فمه وعينيه، علامات الاستفهام على وجهه تحتاج لألف سؤال، تحاول زوجته صادقة أن تجيبه لكن ضحكاتها تغلبها، تنتقل العدوى للأولاد ويشاركون أمهم الضحك الهستيري!!

أبو مهران المسكين وجد نفسه قد انتقل من موقف الغيظ الأصغر إلى محطة الغيظ الأكبر، ماذا يفعل، هل يصفع زوجته صفعة يخرسها فيها إلى

الأبد، أم ينتظر ليتأكد أن زوجته لم تفقد عقلها، فهي بدلا من أن تنبري للدفاع عن ولدها المدلل، أو بدلا من أن تتوسل لديه أن يهدأ وأن يخفف عنه غضبه، بدلا من أي فعل إيجابي، ها هي تفاجئه بتصرف عجيب غريب، تضحك وتستمر في الضحك ولا تراعي مشاعره، ولا تحترم غضبه، ولا تشعر بما عاناه في الساعة الماضية من الغضب والغيظ والانفعال كردود أفعال على استيعاب مهران-ولده الأكبر-لأول درس في تعلم قيادة السيارة!

أخيرا التقطت أم مهران أنفاسها، وشيئا فشيئا تمكنت أن تخبره من خلال ضحكات قصيرة وعابرة للكلمات المتقطعة: أثناء غيابكم -أنت ومهران- جلست أنا والأولاد نشاهد فيلم الفيديو الذي سجلته لك في أول درس حضرته أنت لتعلم قيادة السيارة.. لكن الشهادة لله، مدربك كان أشد عصبية منك، وقد ضربك على يديك عدة مرات!!!

ودخلت أم مهران وأولادها مجددا في موجة ضحك طويلة جداً.

****

قرية مترفة

ضاق صدري وطال انتظاري، حتى جاءني الفرج بأحسن الأخبار، تم تعييني مدرسا في سلك الأخيار، مربيا للأجيال وحارسا لمستقبل الصغار، فحزمت حقائبي ودفاتر أسراري.. ركبت السيارة مفازة ثم قطعت الباقي على الحمار، وبعد لأي وجهد وطول اصطبار.. وصلت إلى القرية المترفة-كما سماها مدير المعرفة-أبغي استئجار بيت أو غرفة، واسعة مريحة ونظيفة، فبت أتلفت يميناً ويساراً، فإذ بي أرى طفلاً من قميصه قد تعرى، يمسك بيده عنان بقرة، فسألته مستفسراً، عن بيت للأجرة، فدلني على مكان منخفض البنيان، مصدع الجدران، ثم قال: استشر سيد الرعيان.

....

ذهبت إلى بيت المختار، الذي أدخلني داره بإصرار، وقدم لي الشاي الحار، على طبق من بيت الجيران مستعار، وأخذ يحدثني عن أمور الرعية والرعيان، وأنا ذاهل عنه بتأمل بنت الجيران، أرشف الشاي من الفنجان. ولما الفتاة شعرت بتحديقي إليها، نظرت إليّ مقطبة حاجبيها، فاضطربتُ والفنجان من يدي وقع، على سروال المختار المبرقع، من كثرة الأوساخ عليه والرقع.. فنظرت إلى وجهه وقد أصبح متكدرا، وكأنه يبغي مني المغادرة..

فقمت إليه مبادرا، وقبلت شاربه معتذراً، ثم أرضيته بنصف ليرة. وما إن أمسك المال، حتى قام على استعجال، وقال: اتبعني يا صاحب المال، أقصد يا ابن الحلال.. وعندما وصلنا إلى الباب، نظر إلى الأكواب، فلحظ فيها بعض الشراب، وإليها كان الإياب، لشرب ما فيها بلا استعياب، وأنا أراقبه باستغراب!

....

أخيراً وصلنا إلى الغرفة الموقرة، وما إن فتحنا الباب حتى هب لاستقبالنا الذباب، أما الغرفة فذات نوافذ ثلاث، وهي قديمة الأثاث، محطمة الزجاج، كجارها الباب الذي فقد المزلاج، أما العناكب فهي مواكب، ذات شباك وشراك، وأرض الغرفة محفّرة، والقذارة فيها منتشرة.. لكن ما إن رأيت الفئران والجرذان، تخرج من الزوايا والأركان، حتى خرجت من هذا المكان مرتحلاً، وبالسرعة القصوى مهرولاً، وعلى النجاة معولاً، وما زال فكري بالقروش مشغولاً، وقلبي من الجرذان وجلاَ.

....

وكان طريق العودة طويلا، فما وجدت سيارة ولا جملا ولا فيلا، بل ركبت النحس وكان حادينا ثقيلا، حتى وصلت مبنى التربية، تائه الروح محطم البنية، وبعد انتظار في مكتب المدير الأنيق، علا منه في وجهي النهيق، وأصر على التحاقي بعملي أو تقديم استقالتي، وإلغاء أي أمل في العمل في

دوائر حكومتي، وأنا الذي بذلت دمي من أجل شهادتي، قصصت له حكاية الغرفة والقرية، فزاد من لومي ومذمتي، ونادى حراسه فسحبوني من ياقتي، ورموا بي في الساحة!! لملمت بعض كرامتي، وفاتني منها ما جرى مع ماء رجولتي.. ثم توجهت لمكتب الوزير، وظني أنه سيرفع الزير من البير، لكنه كان أشد لطفا وأقل عنفا، فقد أبلغني حارس البوابة الرئيسية أن التعليمات الرئاسية تقتضي أن يمر الأمر عبر التسلسل الوظيفي، ولا يحق لمدرس صغير أن يخاطب السيد الوزير..

فرفعت أمري لله، وخاطبت رب الأكوان دون وسيط، بكلام صادق بسيط..

....

باشرت بعدها عملي في نفس الديار، وخطبت ابنة جار المختار، وصارت بعد حين زوجتي، ووجدت فيها حاجتي وبغيتي، ثم اشتريت الغرفة بعد أن استأجرتها لبعض الزمان، وأنجبت فيها ثلاثة من الصبيان، وتعاونا معا لتربية الدجاج وتسمين الصيصان، وفرجها الله علينا بعد أن تكاثرت في دارنا الفراريج، وتكفلت قطتنا الجديدة بمكافحة الجرذان والفئران، قبل أن يهيج نهر القرية، ويفيض ماؤه في كل ساقية، حدث الطوفان، تصدع المبنى وهوت علينا الجدران.. فحملنا أقفاص الدجاج، والأطفال وألواح

الزجاج، وعدت إلى دياري أروي قصتي للصغار والكبار، وافتتحت مدجنة لتربية الصيصان، فعادت علي بوفير الأرباح، وانقلبت حياتي نحو الراحة والأفراح، وتعلمت بعد طول العناء والتعب والشقاء أن تربية الصيصان خير لي من تربية بني الإنسان!!!

****

محتويات الكتاب

إهداء.....5

وثائقي من الصومال 6

عندما تركنا المدرسة.....12

من الغزل ما قتل 31

ليس للكاذب توبة 39

حقول الزنبق والفجل.....47

غزل آخر الليل.....55

العيد والعودة 60

العشرة الطيبة 69

أبو الديموقراطية.....77

المطرقة الذهبية.....85

الدَّيْن.....94

أنا والأنانية 105

عزاء صاخب!.....116

سائق جديد.....120

قرية مترفة 122

محتويات الكتاب.....126

تم بحمد اللّه

حقول الزنبق والفجل

مجموعة قصصية

د. يوسف سلامة

الطبعة الأولى
1442 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com